هكذا
فلترى إلى الإسلام

تأليف
الدكتور محمد علي البوجلي

مؤسسة الفكر العربي
بسم الإله الرحمن الرحيم

الحمدلله حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده . يا ربنا
لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظم سلطانك .
سبحانك اللهم لا نحسى ثناءً عليك أنت كما أثبتت
على نفسك .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي
وعلى آله وصحبه . صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .
وأسأل الله تعالى أن يلهمني الرشد ، وأن يعينني
من شروري وسياست أعمالي ، وأن يكرمني بنعمه
الإخلاص لوجهه في كل شؤوني إنه أكرم مسؤول .
مقدمة

يتبوأ هذا البحث مكانه من الأهمية، بين بحوث هذه السلسلة، لعوامل مختلفة، من أهمها العوامل التالية:

العامل الأول: إنحسار معظم الشهات الفكرية والعلمية المختلفة التي كانت تغشي إلى وقت قريب، على عقول كثير من الناشئة والمثقفين، في طريق إقلاعهم على الإسلام، إذ كان يدفع بها إليهم أناس احتفوا الغزو الفكرى، ضد كل ما يتضمنه الإسلام من عقائد وأحكام! ... وانّك لتذكر كم سخر هؤلاء الناس دروسًا لهم في المدارس، على اختلاف مضموناتها، للتلقيش على حقائق الإسلام والتشكيك في يقيناته، يسخرون لذلك عناوين العلوم آناً، والتاريخ آناً، والكتشفات والنظريات الحديثة آناً آخر! ...

فلمّا انحسر اليوم سلطان هذا التشويش الخادع، وأفلت زمام العلم من أيدي المتلاعبين بألفاظه، وعاد العلم الحقيقى برهاً يملأ عقول الباحثين يقينًا بصدق كل ما يتضمنه الإسلام من حقائق الإيمان وأنظمة الحياة والسلوك.
فكان من آثار هذا الانحسار للشبهات وحية الساعين بها إلى عقول الناشئة، أن أقبل هؤلاء الشباب من كل حدب وصوب إلى تفهم الإسلام بتفاوت تطبيقه والانضباط به. ولا بدّ في هذه الحالة من وجود عدد كبير من الداعين إلى الإسلام، فقد أقنعوه علماء، واستقاموا عليه سلوكاً، وخلصوا الله تعالى في تمسّكهم به؛ ليبصروا هذه الناشئة بحقيقة الإسلام، ويرسخوا مبادئه في نفوسهم، ويرشدوهم إلى سبيل الأمثل للإهداية به فكرًا وخلقًا، وسلوكاً.

العامل الثاني: أن هذه الشهات وان تكن قد ابتعدت عن الطريق إلى فهم الإسلام، وحقيقةه، وواقع سمعه على كل خرافه أو ضلاله شاردة عن موازين المنطق والعلم، فإن المترقبين به من أعدائه، في شرق العالم وغربه، يدأبون، بكل ما أتوتا من قوة، على الكيد له ولأهله إنها كنوا. وان ذلك لننظر، فلا ترى من جامعة تجمعهم أو جسر يصل ما بينهم، إلا استغلال تنسيق السبل المذكورة العجيبة إلى خنق إسلام المسلمين في صدورهم، أو إلى حصر فاعليته ضمن أضيق المجالات وأقلها شأنًا في حياتهم.

فاقتضت هذه الظاهرة، أن يتضاعف أعداد القائمين بواجب الدعوة إلى هذا الدين الحنف، بل إن هذه
الظاهرة اقتضت أن يتحول كل مسلم، صدق مع الله في إسلامه، إلى جندي يقوم بواجه الدعوة إلى الإسلام جهد استطاعته، وفي نطاق إمكاناته.

لقد كانت مهمة الدعوة إلى الإسلام من الفروع الكفاحية، كما قال العلماء، يوم كانت المجتمعات الإسلامية، تسير قدمًا في طريق الإسلام، بدفع من اتجاهاتها التي وضعت نفسها فيه، دون أن يكون على الطريق أو عن يمينه أو يساره، من يتبرص بها الدوائر، ويتخلق لها العقبات، وبصدّها عن الوصول إلى الغاية بنيران الشهوات والأهواء.

أما اليوم، وقد جند كل امكانيات الدنيا، من مال وطاقة ونساء وفكر، في سبيل الصد عن صراط الله والوصول إلى مرضاته، فقد أصبحت مهمة الدعوة الإسلامية فرضاً من الفروع العينية، يحاط به كل مسلم صادق مع الله في إسلامه، ولم تعد مقتصرة على ثلثة من الناس، مما بلغ شأنهم ومهما كانت أهميتهم.

إنا في عصر تلتهم فيه الناران بنيان الإسلام، على الرغم من أن دعائم احقيته لم تتجلى للأبصار والنصائر كما تجلت في هذا العصر، لا لأقوم من الناس بأعيانهم، بل لأهل الأرض جميعاً، وفرق الإطفاء قليلة عاجزة عن الوقوف وحدها في وجه هذه النار،
إذن لا بد من أن يهاب الكل، على اختلاف قواهم وإمكاناتهم، لصد هذه التيران عن بيان الحقائق الإسلامية، وعن صرح القائم على دعائم الحق والغزة والعدل كل يجاجد في سبيل ذلك حسب استطاعته.

العامل الثالث: أن الدعوة الإسلامية، وقد ارتفعت أهميتها وزادت ضرورتها وخطوطها إلى ما قد رأيت، ليس شأنها كشور الدعوة إلى أي مبدأ أو مذهب آخر! إنها تحتاج إلى كثير من العلم ودقته، وإلى كثير من الحذر وبقائه، وإلى كثير من رقابة النفس. لا تتسلل شيء من حظوظها إلى طريق الدعوة وسبايتها. فاكثر ما يتلقي الداعي إلى الإسلام، عن النهج السوي الذي يجب عليه أن يلتزمه ولا يجد عنه، بسبب جهل وقع فيه، أو بسبب حظ من حظوظ النفس هم، عليه، وإذا هو يأتي من حصاد عمله ودعوته بعكس ما كان متوقعاً، وربما امتد لعمله ذاك أثر مستمر لا يكاد يقطع! ..

فاظضى الأمر من أجل ذلك، تبصير المسلمين على اختلاف ثقافاتهم وقراراتهم ومستوياتهم، من أخلصوا لله في دينهم وإيمانهم، بالسبيل الذي يجب أن تنضبط به عملية الدعوة إلى الإسلام، على ضوء أوضاعنا القائمة اليوم. سواء فيها ما كان متعلقاً بالمسائل العلمية
المتعلقة بهذا الصدّ، وما كان متعلقًا بأمر النفس وتزيكّتها، وما كان منها متعلقًا بالسياسة الشرعية المتعلقة بالدعوة ذاتها.

وإن بحث هذه المسائل ليحتاج إلى مجلّد كبير لكي تستوعب فيه على نحو وافٍ مبسط.

غير أن الوقت أُجل من ذلك.

إنه أُجل من ذلك، لأن المهمة الملحة على أعقاب المسلمين جميعًا، بصدّ واجب الدعوة إلى الله، لا تمهل ولا تنتظر الوقت الذي ينضج فيه مثل هذا المجلد ويتكمّل إخراجه.

وهو أُجل من ذلك، لأن مثل هذا المجلد الكبير، سيكون خطابًا للخاصة من المسلمين دون غيرهم، وإنما نريد منهما نهجًا يوضع تحت يد كل مسلم بصير بدينه مخلص في القيام بواجب ربه عليه.

وهو أُجل من ذلك، لأنني لا أجد لدي من الوقت ما يتسع لعرض تفصيلات واسعة في هذا الصدّ، قد يستغرق مني زمنًا طويلاً لا أدرى هل يكون في الأجل متسّع له، مع كل ما قد ثراه حولنا من مشكلات الدعوة، واحتياجاتها الملحة المستمتعة.

لذا، وجدت في بحوث هذه السلسلة، ما ينجدني
في كتابة خلاصة جامعة لكل ما يجب أن يتعلم به الداعي إلى الله عز وجل. وعلى كل مسلم اليوم أن يكون داعياً إلى الله، جهد استطاعته، ولكن بصيرة وعلى هدي من آداب هذه الدعوة وشروطها.

وقد كنت، ولا أزال، أحرص على أن تكون هذه البحوث علاجاً للفقية ما يشغل بال المسلمين بل الناس اليوم، من أمور الفكر والثقافة، وأن أحزم كل مسائلها ضمن أسهل يجمع، قدر الإمكان، بين الاستيعاب والإيجاز والإيضاح.

فذلك هو السبيل الوحيد لفتح مغاليق هذه البحوث أمام طبقات الناس المثقفين جميعاً، ومن ثم يتسير لنا جميعاً أن نبذل جهوداً مشتركة عامة، لا تعلو فيها طبقة على أخرى، من أجل حل معضلاتنا وقيام بواجباتنا والسير معاً إلى غاباتنا.

ومسألة الدعوة إلى الإسلام، ما أراها إلا من أهم

(1) نقصد بكل مسلم اليوم، آحاد المسلمين، من يملكون القدرة على الدعوة بياناً وحجة باللسان، ولستنا نقصد هنا الواجب الذي وضعه الله تعالى في أعناق الحاكمين وأولى الأمر، فمن يملكون أكثر من وسيلة الحجة والبيان، ألا وهي قوة الحكم والإلزام.
هذه البحوث التي تشغل فعلاً بالكل مسلم صادق في إسلامه.

فهي ضرورية في حياتنا جدًا، ولكن الخوض فيها من دون دراية وتسلّح بالضوابط والكواكب التي لا بد منها خطير جداً.

ولعل الله يوفقني في الصفحات التالية. لبيان السبيل الذي يضمن لنا القيام بهذا الواجب الضروري، مكلوًّا برعاية ضوابطه وآدابه وأحكامه التي لا بد منها.

إنه ولي كل هداية وتوفيق.
الشروط الأولية لسلامة الدعوة

يمكننا أن نلخص هذه الشروط في الأمور الثلاثة التالية:

الشرط الأول: أن يتحقق الإسلام الصحيح في شخص الداعي إليه.

وضرورة هذا الشرط من الوضوح بمكان، فكلما يعلم أن فاعذ الشيء لا يعطيه.

ولن نتحدث في هذا الصدد، عن إنسان لم يقبل الإسلام له ديناً، فلن المتفق عليه أن هذا الإنسان، إن دعا إلى الإسلام، فلن يأتي من دعوته بأي طالب، بل من المقطع به، أنه لن يهض بأي دعوة حقيقية إلى مبدأ لا يدين هو نفسه به.

ولكن المهم في هذا الصدد، أن نساءل عن قيمة الدعوة إلى الإسلام، إذ يهض بها مسلم غير متزم بأحكام الإسلام وأدابه، أو يهض بها مسلم متزم بأحكام الإسلام، ولكن له مينفصل الله عز وجل في هذا الالتزام في هذه الدعوة.

10
فلتعلم أن المسلم الذي لا يلتزم جهد استطاعته
بأحكام الإسلام، أو يلتزم ولا يكون مدعومًا إلى
ذلك طلبًاٌ لرضية الله تعالى وحده، لا يكون عمله في
الدعوة، إن هو قام بها، إلا كمن يفتح منابير مياه
على حوض ترك مصرف الماء مفتوحًاٌ في قصره. قد
يتجمع شيء من الماء فيه، ولكنه أبل إلى الذهاب والضيع.
ولكن كيف ذلك؟ ولماذا؟
إن الداعي الذي من شأنه أن يَهْيَجَ المسلم ويُهْضِيه إلى
دعوة الناس إلى الإسلام، هو بذاته الداعي الذي من
شأنه أن يَهْيَجه إلى الالتزام بأحكامه وآدابه، والخلاص
في ذلك لوجه الله وحده.
ومن هنا يتحقق التلازم بينهما، نظرًاٌ إلى أنهما
فرعان لأصل واحد، فلا يتحقق الأصل بدونهما.
ولا يتحقق واحد منهما بدون الآخر.
فإن رأيت — مع هذا — إنسانًا نشيطًاٌ في القيام بأعياة
الدعوة إلى الله تعالى، ولكنه متهاون في أمر نفسه وإلزامه
إياها بأحكامه وأوامره عز وجل، فاعلم أنه مدعوم
إلى نشاطه هذا بدافع آخر، غير ذلك الأصل الر박اني
الذي إذا وجد، لا بد أن يترفع عنه كل من الالتزام
الصادق المخلص في النفس، والدعوة إليه في صفوف
11
سائر إخوانه وأصحابه.

وما أكثر الدوافع الأخرى التي تحمل صاحبها (والحالة هذه) إلى نشاط عجيب في حقل الدعوة الإسلامية، قد يذهب براحة جسمه وبالكثير من حظوظ نفسه. كتعلق بالزعامة، أو سعي وراء مصلحة، أو طلب لثناء، أو تسخير الدين لأرب من المأرب! .. فإن هذه الدوافع وأمثالها إذا استحكمت بالنفس، هيجت صاحبها إلى نشاطات قاسية ومضنية، يتحملها، وهو جزلان، تتعلق بالآمال التي يترقبها فيما بينه وبين نفسه.

وأياً كان، فإن شيئاً من عمل مثل هذا الداعي لا يأتي بشهرة حقيقية باقية، بل ربما لا يترك، على المدى البعيد، إلا آثاراً عكسية تسيء، ولا تصلح، وتبعد ولا تقرب! ...

ثم إن علينا، بعد هذا، إن نسأل بين ما هو الإسلام الذي يجب أن يلتزم به الداعي إلى الله، هذا الالتزام ويخص له هذا الإخلاص؟

أهو مذهب يعارف غيره، أم هو نظام ينافس الأنظمة الأخرى، أم هو بين في مواجهة يسار، أو يسار في مواجهة يمين؟

ليس الإسلام شيئاً من هذا ولا ذلك. ولكنه.
كما يدل عليه اسمه، الاستسلام المطلق لألواحية الله تعالى وحده، ثم الانصياع، بناء على ذلك، لأمره ونهيه وقضائه.
ولا يترك أساس هذا الإسلام إلا إيماناً كاملاً في القلب.
ولا يعمر الإيمان الحقيقي القلب إلا بعد خلوة عن الأغيار، وتركيته عن الأقذار، وانقطاع علائق الشهوات والأهواء عنه.
وذلك هي التركية التي عبر عنها البيان الإلهي بقوله: عز وجل: قد أفلح من زكاه وقد خاب من دساه(1).
وبقوله تعالى: ومن تركوك فإما يتركي لنفسه وإلى الله المصير(2)، وقوله تعالى: يوم لا يدفع مال ولا بنون إلا من اثنى الله بقلب سليم(3).
وهي المقصود بالصلاح في قوله عليه الصلاة السلام: ألا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

(1) سورة الشمس: 9.
(2) سورة فاطر: 18.
(3) سورة الشعراء: 89.

13
هذا الإيمان الذي يجب أن يترعى قبل كل شيء، في حيز الفؤاد كله، نقياً من الأدران، هو يموع الإسلام وروحه، وهو المواء الذي يُتنفس به ويعيش عليه.

إذا استقام الإيمان على هذا النحو، في الفؤاد، خالياً عن الزغل، نقياً عن الدرون، تحقق مظاهر الاستسلام كلها في كيان الإنسان لأوامر الله ونواهيه وسائر أحكامه بدون عظيم جهد ولا طويل عنا.

وإذا الذي يستنفد من الإنسان الجهد والشدة، تحرير القلب من علاقات الدنيا وأهوائها، والارتفاع به إلى مستوى الطهر والصلاح، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى ينتهي به إلى حالة لا يغشي شيء من آفات النفس الأمارة بالسوء، بل يعود مرآة صقلية يتجلي فيها شهود الخالق عز وجل وحده. فإذا عبده صاحب هذا القلب، تجلئ له شهود الحق من مشكة قلبه، فغدا وكأنه يرى الله، لا يحجبه عن هذا التجلي شيء من ملتهيات الدنيا وأهوائها وآفات النفس وردائها.

ومن هنا كان قوام الدين الحق الذي ألزم الله به عباده، مكوناً من ثلاثة أركان: إيمان، وإسلام، وإحسان.
فغرس الإيمان في القلب، ومكان الإسلام الجسم كله، ومستقر الإحسان صلة ما بين القلب الذي آمن، والجسد الذي أسلم. ولا ينفرد واحد من هذه الأركان الثلاثة بوجود مستقل مفيد، بل الدين إذا ما يتكون من تألف هذه الأركان الثلاثة التي لا تبدو أن تكون جذوراً وفروعاً وشرابين تنقل الحياة من هنا إلى هناك.

والمسلم إذا عاش، فلهذا الدين يعيش؛ وإن دعا الناس، فإن هذا الدين يدعو.

وعمّاذ الله أن يكون دين هذا شأنه وجوهره، مجرد نظام بين الأنظمة، أو مجرد مذهب من المذاهب.

ليس لأنظمة والمذاهب التي يتطلبها أهلها عليها اليوم، إلا وجود خارجي يبدأ وينتهي في ساحة المشاهدات والمحسوسات، وإنه لوجود ما أيسر أن يكون قناعاً يستمر خلفه التفاف ألوانًا، ويكمن وراءه الخداع والكيد، أشكالاً! ..

أما الإسلام فوجوده شعاع يمتد في كينونة الإنسان كله، بدءاً من باطن القلب إلى ظاهر الجوارح، من شأنه أن يحرر الإنسان من أنانية ذاته، وأفاف نفسه، ثم يخضعه لأحكام ربه.

أو لم تتأمل في قول الله عز وجل: "قل ان صلاتي"
ونسكي ومحيا وعماني لله رب العالمين، لا شريك له. وبل ذلك أمرت، وأنا أول المسلمين.»
فذلك هي حقيقة الإسلام الذي يجب أن يتحقق به كل مسلم صادق مع الله في إسلامه. وذلك هو الشرط الأول الذي يجب توفره في شخص الداعي إلى الإسلام.
ولست أزعم أن على الذي يريد أن ينشط في مجال الدعوة إلى الإسلام، أن يكون قد وصل إلى رتبة الكمال في انصاغة بحقيقة الإسلام باطناً وظاهراً، على النحو الذي ذكرته. فلما كان هذا شرطاً لا بدد منه، إذاً لوجب أن تفرغ المجتمعات الإسلامية من الداعين إلى الإسلام، ولكان عليهم جميعاً أن ينصروا إلى مjahدة النفس والهوى، دون الاشتغال بأمر معرف أو نهي عن منكر، إلى أن يصلوا إلى رتبة الكمال في الإيمان والإسلام والإحسان!...
غير أن من الواجب على المسلمين عامة، والقائمين بأمر الدعوة إلى الله خاصة، أن يبينوا بعقلهم - على أقل تقدير - حقيقة الإسلام الذي يدعون إليه، وعمله الخطير في قلب المسلم وأعمال نفسه على النحو الذي سبق بيانه، ثم عليهم أن يجملو أنفسهم ابتداء التحقق بذلك، كما كان يفعل سلفنا الصالح رضوان الله
نتحدث عنها الآن في هذه الرسالة العجلى.
على أن المسلم الذي لا يبالي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، على الرغم من تقضيره في حق نفسه، وعدم التزامه بما يأمر به الناس، فإما يطبق القاعدة القائلة: ما لا يدرك كله لا يترك كله، وله على إرشاده الناس الأجر، كما أن عليه بسبب إهماله شأن نفسه الوزير، لا ينسج أحدهما من الآخر شيئاً.
ولكن مثل هذا الإرشاد، قل أن يجد أذناً صاغية فيمن يرشدهم ويدعوهم! ...
والسر في ذلك، أن أثر الدعوة في نفوس السامعين ليس آلياً من مجرد الكلام المنطقي الذي يقبله العقل، وإنما هو آت، في معظمه، من تجليات ربانية على قلب الداعي والمرشد، عندما يكون قلبه صافياً من كدورات النفس وأهوائها، مشرقًا بشهود الله تعالى ومراقبته. إذ تنسب من ذلك إشعاعات في كلامه، فلا يلبث أن يسري تأثيره إلى أفكار السامعين، بدرجات متفاوتة، كل حسب ما أبقاه طويان الشهوات والأهواء فيه من بقايا الاستعداد أو زوايا الظهر والفراغ.
فإذا كان الداعي إلى الإسلام يعاني من ظلام القلب وقوسوله، مثل الذي يعانيه أولئك الذين يتوجه إليهم
بالدعوة والارشاد ، فإن غاية ما يمتاز به حديثه معهم جينده ، سلامة المنطق وقوة الحجة والبيان . ويهبتن أن يكون ذلك وحده كافياً ، في أن يضيء طوالاً قلب مظلمة . وإذا لم يستضيء القلب بنور الحق ، لم يكف أن يتخضع العقل وحده لميزان المنطق ؛ فإن أكثر ما يدعو الناس إلى الانحراف عن جادة الصواب . طغيان الشهوات على قلوبهم ، لا احتجاب دلائل الحق عن عقولهم .

* * *

الشرط الثاني : أن تشيع الدعوة أولاً في صفوف المسلمين أنفسهم ، حتى إذا استقام أمرهم على النهج السليم ، وتحسنت في حياتهم معاني الإسلام وأنجحه وفطرته ، ابتعد لهم من ذلك لسان مبين يدعو الأمم الأخرى إلى دين الله تعالى ، وتجلي من سلوكهم أمام تلك الأمم خاطئ مضيء . يشق سبيله وسط أمواج الظلمات وعكر المذاهب والأفكار المنحرفة ، فكان في ذلك أكبر عامل يحمل تلك الأمم على الإقبال إلى الإسلام لفهمه على حقيقته أولاً ، ثم الاعتناق له والانصباب به ثانياً .

إن من أكبر الأخطاء ، أن ينصرف المسلمون عن إصلاح حالهم وتقديم سلوكهم ، لعجز أو لغيره من
قدعوا متعشتين إلى واقع شعوبهم، ولم يبالوا أن يقوم فيما بينهم أحاد المسلمين يدعوهم إلى الإسلام أو يشيدون على أرضهم المساجد، أو يقرونهم لهم كتبًا عن الإسلام وحقيقة. فإنهم يعلمون جيداً، أن هؤلاء المسلمين مهما تجروا في إبراز جوهر الإسلام ناصعاً قوياً أمام أفكار شعوبهم، فإنّ في ذلك الواقع السيء المؤلم الذي استطاعوا أن يصبحوا البلاد الإسلامية به، ما يضمن أن تكون تلك الأحاديث التي يدلي بها المسلمون فيما بينهم عن الإسلام، أي قيمة مؤثرة؟. فنذًا الذي سيصيب بيقين وإجاب إلى ذلك الذي يحدث عن كنوزه وأمواله الوفرة، والناس جميعاً يرون ما يعانه من بؤس وضنك، ويرون يده الممتدة بذل المسألة إلى الفادين والراعحين؟.

ومن أبرز الأمثلة على هذه الحقيقة، ما تراه من سياسة أمريكا المختلفة للحريات في داخل بلادها، وخارج بلادها. فهي تذهب في تقديس الحريات الإنسانية في داخل بلادها إلى أبعد مدى ممكن، ويفترض ذلك يحق لكل إنسان أن يمارس نشاطه الديني على النحو الذي يشاء، كما يحق للمسلمين أن يدعوا الناس إلى الإسلام ويعرفونهم عليه بالطريقة التي يجرونها.

إلا أنها ترقب النشاطات الإسلامية للمسلمين في
بلادهم، بمنظر آخر، فهي لا تبالي أن تسف شعار الحرية التي تعترضه في بلادها، من أصوله، إذا رأى حرية الدعوة الإسلامية في جهة ما من بلاد المسلمين أنفسهم، قائمة بجد على قدم وساق!.. وربما استعانت بأيدي من قد نراهم أعداءاً لها، من أجل القضاء على تلك الحرية وإغلاق السبل أمام الدعوة الإسلامية الجادة.

أن تبلغ مداها الأخير.

والسبب في اتخاذها هاتين السياستين المتعارضتين، أنها تخشى من الإسلام على شعوبها، إذا هرك ونُشط في بلاد الإسلام، أكثر مما تخشى منه إذا نُشط على أيدي أحاد المسلمين داخل بلادها، مما قد بيئة لك.

ألا فليعلم المسلمون أنها كانوا، أنهم في اليوم الذي يتحققون فيه بمعنى الإسلام على وجه الصحيح، بدأ من أعماق أفافهم إلى ظاهر أحوالهم، ستفتح أبواب الإسلام على مصارعها أمام شعوب أوروبا وأمريكا كلها، وسوف يدخلون في دين الله أقواها، كما دخلوا فيه من قبل أقواها.

فأمّا، والمسلمون على هذه الحالة التي هم عليها، فإن جهود الدعوة كلها، يجب أن تتصف إلى إصلاح حالهم هم، وكل حديث يصطنع التباكي على الإسلام
منطلقات الدعوة

قد ينشط المسلم في دعوة الناس إلى الإسلام، وينهض إلى التعريف بمبادئه وأحكامه، ولكن ما يكاد يسير في نشاطه هذا أيامًا أو حينًا من الزمن، حتى تجد أن سعيه قد انقلب إلى دفاع عن شخصيته، وخصوصة مع منافسيه! فالإسلام الذي كان يدعو إليه، لم يعد أكثر من أفكار تجسدت فيها شخصيته، فهو إما يدافع عنها بدفاعه عن تلك الأفكار، وأولئك الذين كان يدعوهم إلى الإسلام، لم يعودوا في اعتباره إلا خصومةً لفكره وأعداءً لشخصيته، فهو من خلال نشاطه معهم إذا بحول أن يشتي غيظه فيهم، بدلاً من أن يسعى جهد استطاعته لهدائهم!...

وتأمل في علاقة ما بينه وبينهم - وقد كانت في بدايتها علاقة دعوة صافية إلى الله - فلا تجدها إلا مشادة حاكمة من نوع تلك المشادات التي تقوم بين أصحاب المذاهب الفكرية أو السياسية المتناحرة!... وتنظر إلى الإسلام الذي يعرضه في خصومته معهم، فلا تجده إلا إسلام فكرية ونظام، مجتشين من كلي الحقيقة الإسلامية
النزلة من لدن رب العالمين إلى الناس جميعاً، وهو ارتداء جلباب العبودية لله عز وجل، فهو يقارع بهما الأفكار والأنظمة الأخرى، مقارعة مغايرة وصراع، في مشادة لا يمكن أن تنتهي إلا إلى مثل ما تنتهي إليه خصومة أي نظامين أو مذهبين متكافئين في أن كلاً منها ليس في حقيته أكثر من نظام! فذا عسى أن يكون معنى الغلبة لأحدهما على الآخر، سواء مساعدة الظروف، أو تفاوت كمية القوى ضمن نطاق كيفية واحدة؟ أي فهي ليست وحدها هذه من نوع غلبة الحق على الباطل، وإنما هي من نوع تلك الغلبة التي لا بد أن ينتهي إليها صراع بطلين في حلب ملاكمة أو مصارعة حرة.
وأنا لست أتخيل هذه الصورة في ذهني، ولكني أصفها كما هي، في حال كثير ممن يمارسون الدعوة إلى الإسلام في مجتمعنا اليوم.
فما هو سبب ذلك؟ ليس لذلك من سبب سوي أن هؤلاء الأخوة لم يضبطوا أنفسهم بالمنطلقات التي تنبش أعمال الدعوة الإسلامية - في واقعها الحقيقي - منها، ثم تظل سائرة على سنوا منضبطة بوجهها.
الواقية، كلما شعر بغوائل النفس ودسائس الأنانية، تتصل إلى مكمن القيادة القبلية في عمله، كالإكتاز من ذكر الله عز وجل بقلب حاضر غير غافل، والإكتاز من تلاوة القرآن تبدر، والالتجاء إلى الله بالدعاء الضارع أن يفيه من حظوظ نفسه.

ومعنى هذا، أن غوائل النفس وحظوظ الشيطان، لن تموت في شعور الإنسان، ولكنها تقع في زاوية من الكيان الإنساني، بعداً عن التأثير عليه، كلما كان الإنسان مراقباً لها متحفزاً لمقاومتها بذكر الله عز وجل وما يتبعه من العلاجات الواقية. أمّا تسمع قول الله عز وجل:

الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكرواً
الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله،
ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، آل عمران: 135.

وقول الله عز وجل:
إن الذين أنتموا إذا مسّهم طائف من الشيطان
تذكرواً، فإذا هم مبصرون، الأعراف: 200.

وقول الله عز وجل:
ومن يعيش عن ذكر الرحمن، نقيض له شيطانًا.
فهو له قريب، الزخرف: 36.
وقد كان من أدب الصديقين والمخلصين من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم ومن ساروا على هديهم، أن يرفعوا إلى ذكر الله واستغفاره والضارة إليه بالدعاء، كلما طاف بهم طائف من غوائل النفس وأهوائها، فيرد لهم ذلك إلى حمى الاستقامة القلبية والسلوكية على المنهج السلم الذي شرعه الله عز وجل.

من ذلك ما ورد في ترجمة الإمام النووي رحمه الله تعالى (وقد كانت حياته كلها وقفاً على الدعوة إلى دين الله إما بالكتابة والتصنيف أو الإقبال إلى الناس حكاماً ومحكومين يذكرهم بالله ويدعوهم إليه) أنه كان يستغرق في الكتابة أو الدرس، فربما ألم نفسه طائف من الشيطان، ليشير فيها حظاً من حوظ الهواء أو الرغائب الشخصية، فيقف عن الكتابة أو التعليم قائلاً: أُخْذِنَا مِنَ حُيْثِ لا نَشْعِرُ!... ثم يستغفر الله ويتقبل إليه بالтурة والدعاء!...

فهذه هي الضيافة الأولى.

أما الضيافة الثانية، فهي أن الحقيقة الإسلامية التي يدعو إليها هذا المسلم الذي التزم بمنطلق العبادة لله عز وجل في دعوته، لن تتحول شيئاً فشيئاً في ذهنه إلى مجرد فكرة أو مذهب سطحي يقارع به المذاهب الأخرى.
صاحب أي مذهب أو مبدأ إلى الدعاء عن مذهبه وإلى دعوة الناس إليه، فلا بد أن ينسى الله عز وجل في غمار دعوته تلك، ولا بد أن يتحرف في ذلك الطرف الأناني الذي ينحرف فيه دعاء الأفكار والأحزاب المتتالية. وهيهات عندئذ أن يتأثر بدعوته أحد، اللهم إلا أن يكون تأثراً مصلحياً قائماً على الرغبة في الوصول إلى أمان ومصالح دنيوية، وهذا التأثر المصلحي من شأنه أن يتحقق نتيجة للدعوة إلى أي مبدأ من المبادئ الدنيوية الأخرى، تبعاً لظروف وأوضاع معينة.

وإني لأعلم أن في المسلمين رجالاً، يجلسون ليتذاكوروا في أمور الدعوة إلى الإسلام، ومناهجها وما يتعلق بها، فينسون في غمار حديثهم ونقاشهم أهم واجباتهم الدينية التي أناطتها الله في أعنافهم، كالقيام إلى الصلاة في أوقاتها، ثم ما يتبهون إليها إلا في آخر الوقت، ولا يقومون إليها إلا متناكرين، ولا يؤديونها إلا بسرعة خاطفة شأن من يريد أن ينصرف في التخلص من عبء يلازمهم.

ليس في نظري من فرق بين الدوافع التي تجمع هؤلاء على البحث في طرق الدعوة إلى الإسلام، والدوافع التي تجمع أتاماً آخرين على البحث في سبيل
الدعوة إلى أي مذهب من المذاهب الأخرى! إنها جميعاً تتبع من قاسم مشترك واحد، هو الانتصار للذات والحظوظ الشخصية التي يمكن أن تعبر عن نفسها بصور وأشكال شتى.

ولا ريب أن جهد هذا النوع من المسلمين، جهد ضائع، مقضي عليه بالخيبة التامة، لأن الله تعالى لا يكَلِّم عملاً قابلاً على مثل هذه البواعث بأي رعاية أو توفيق. وإنما يكون الانتصار الداعي إلى الله بسر من توفيق الله فقط، كما سنشرح ذلك فيما بعد، ولأن الناس لا يصعب عليهم أن يشعروا رائحة حب الانتصار للذات والسعي إلى حظوظ النفس، من خلال حديثهم عن الإسلام ودعوته إليه.

غير أن هذه الآفات كلها تزول، ويستطيع الداعي إلى الله أن يكون في منجاة منها، إذا هو يدخل أعمال الدعوة الإسلامية في صفوف الناس، ليست في جوهرها إلا عبادة الله عز وجل، وإذا هو وضع يقينه هذا موضع التطبيق من عمله وقصده وشورته في مراقبة دائمة لنفسه ألا تدهل عن هذه الحقيقة ولا تبتعد عن سلطاتها.

...
المنطلق الثاني: ويتمثل في ضرورة ألا تتبع أعمال الدعوة الإسلامية إلا من شعور غامر بالشفقة والرحمة لعباد الله جميعاً. فعلى من جَنَّ نفسه داعياً إلى الله عز وجل أن يجعل من قلبه ووعاءً يفيض بالرحمة لعباد الله كلهم على اختلاف نحلهم ومللهم ومماربهم واتجاهاتهم. ولا يتحقق ذلك إلا بأن يضحي بخططه النفسية ومصالحه الدنيوية في سبيل تحقيق الخير لهم جميعاً.

فإن صعب عليك فهم هذا المنطلق أو التحقق به، فارجع إلى هذا الدين الذي هدى الله إليه عباده وألزمهم به، وتأمل في حقيقته وسر هديته الله عباده إليه وأمرهم به، هل تجد من وراء تلك الحقيقة وهذا السر إلا رحمة الله تعالى بهم؟... وانظر - كما يقول العزير عبد السلام - إلى كل نداءات الله تعالى لعباده في كلامه المنزل إليهم، هل تجد في أعقاب كل منها إلا أمرًا بما فيه مصلحتهم أو نهأً عما فيه مفسدتهم؟... ثم أنظر إلى إرسال الرسل والأنبياء إليهم، يخاطب عباده ويعرفهم إلى ذاته عن طريقهم، هل تجد فيه إلا أوضح برهان على تكريم الله تعالى لهم ورحمته بهم. أو ليس هو القائل عن رسوله محمد ﷺ: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، والقائل: وربك الغني ذو الرحمة، والقائل: ورحمتي.
وسعت كل شيء؟

فإن بقيت في نفسك من ذلك شبهة فرجع إلى حياة
سيدنا محمد ﷺ، وإنما هو سيد الدعابة إلى الإسلام
وإمامهم في ذلك، فتأمل مدى رحمته بالناس جميعاً،
وأنظر إلى هديه في ذلك وإرشاده الناس إلى هذه الحقيقة.
أو ما سمعت قوله: » الراحمون يرحمهم الرحمن
تبارك وتعالي، إرحموا من في الأرض يرحمهم من
في السواء« (1) أو ما علمت أن بعض أصحابه قالوا له
في بعض الغزوات عن المشركين: لو عنتهم يا رسول الله.
فقال: إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عنا من الله.
وقد صبح عنه ﷺ أنه لم يطلب منه الدعاء على أحد من
الناس مسلاماً كان أو كافراً، عموماً أو خصوصاً،
لاً وعدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالرحمة والمغفرة
والهداية.

باشر الطائف أكثر من عشرين يوماً، فلما
استعتصمت على المسلمين أمر النبي ﷺ أصحابه بالرحيل،
فقال له قائل منهم: يا رسول الله أدع الله على ثقيف
أي على أهل الطائف - عرف رسول الله يديه قائلًا:
لهم اهد ثقيفاً وائت بهم المسلمين. وقد علمت أن
(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم في مستدرك.
(2) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
ثقيعاً هذه هي التي طردته عندما هاجر إليها وألحقت به من الضر والذي ما لم يبلغه أحد من المشتركون في إيذائه
(1) **عليه السلام**

وقيل له يا رسول الله: ان دوّسا قد كفرت وأتبت، فادع عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً وانتبه بهم مؤمنين.

وعندما فتحت له مكة، ودان له أهلها، دخلها خاضعًا ذيلًا الله عز وجل، قد نكس رأسه وأطرقه شكرًا له عز وجل، وحجراً لحفظ النفس أن تتسلل إلى مشاعره وقلبه. ثم وقف عند الكعبة يخطب في جموع المشتركون، وهم الذين طالما آذوه ثم اتّمروا به أن يقتلوه، فقال لهم: ما تظنون أنني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم!.. فقال لهم: إذ هبوا فأتّم الطلقاء!...

فإن قلت: فإن صبح أن مبعث الدعوة إلى الله هي الرحمة بعباده أن لا يضلوا عن الحق والشفقة عليهم ألا يقعوا في أسباب الشقوق، فلماذا شرع قتال الكافرين إذا اقتضى الأمر ذلك؟

الجواب: أن الأصل في الدعوة إلى الله أن تكون (1) أخرجه الترمذي في سنته، ورواه ابن سعد في الطبقات عن عاصم الكلابي عن الأشهب عن الحسن.

٣٧
سلمًا بالنسيحة والوعظة الحسنة من منطلق الرحمة والشفقة الصادفين، فالأصل، كما يقول الفقهاء هو السليم، والحرب خلاف الأصل. وإذا سارت الدعوة إلى الله من هذا المنطلق، فإن يقف في وجهها إلا أولوا المصالح الدنيوية والرغوبات النفسية، كي لا يقضي الإسلام على مصالحهم، ولكي لا يحرموا من زعاماتهم، ولكي تظل لهم عروشهم. ولكي تبقى أزمنة الناس في أيديهم، يقدرهم كما يشاءون، ويستغلونهم كما يريدون. تلاحظ هذا جيدًا من خلال نصوص الكتب التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم ورؤساء الشعوب، كما تلاحظه من خلال دراسة قصة الفتح الإسلامي في بلاد فارس والروم وغيرهما.

فالرحمة بالناس، هي ذاتها التي تستلزم عند الضرورة - الاستعانة بالقاتل. أياً كان الأمر، فإن القاتل الذي شرعه الله عز وجل، عند الحاجة إليه، لا يمكن أن يبتش عن ضغينة أو حقد يفيض به القلب، بل هي القسوة التي تقتضيها سياسة التأديب التي لا بد منها في بعض الأحيان، وهي كما قال الشاعر.

ففسا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقق أحياناً على من يرحـم.

38
وحديث الجهاد وحكمته والأسباب الباعثة عليه ،
حديث طويل ، لا يتسع له ما نحن بصدده ، فارجع
إلى تفصيل ذلك في أماكنه ．
ولعلك تقول : ولكن كيف يتفق أخذ النفس
بالشفقة والرحمة لسائر عباد الله تعالى ، مع ما هو واجب
على المسلم من البغض في الله إلى جانب الحب في الله ．
وقد روى الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوثق عرى الإمام بن الله الحب
في الله والبغض في الله ．
فالجواب ، أنه لا يوجد أي تعارض بين الشعور
بالشفقة والرحمة لرتكب الأوزار والمعاصي ، والشعور
بغضه الله عز وجل في الوقت ذاته ، إلا بالنسبة لمن
النسب عليه معنى البغض في الله مع البغض استجابة
للنفس وأهوائها ．
إن معنى البغض في الله ، أن يبغض المسلم من
الشخص تلبسه بالمعاصي ، بحيث لا تكون في نفسه
أي كراهية لشخصه بالذات . ولا ريب أن مبعث هذا
البغض إما هو الغيرة والمبالغة في حب الآخر له ، وطبيعي
أن يكون شعور المسلم إذ ذلك فياضاً بالشفقة والغيرة
على شخص هذا العاصي بمقدار ما يكون فياضاً ببغض

٣٩
عصبانه، أي فالمسألة على العكس مما تتصور، بنيهما التلازم التام، وليس بنيهما أي تعارض أو تشاكس.

ولكن كم هم أولئك الذين يفرجون بين البغض لله، والبغض انتصاراً للنفس والهوى، ثم يضبطون أنفسهم عن أن تنازل حظوظها تحت هذه اللائحة التي ما أيسر أن تسبر ألوانًا من الأحقاد الشخصية الدفينة ودوافع الأنانية والانتصار للذات، ألا وهي لائحة: البغض في الله؟؟؟

إني لأعلم أن بعض المسلمين تفيض أفئدتهم بالضغائن والأحقاد على أولئك الشارنين والمنحرفين عن جادة الإسلام، وإنني لأعلم أن هذه الضغائن إما تجمعهم في أفئدتهم بعوامل شتى مردها جميعًا إلى حظوظ النفس وأهوائها وحب الانتصار للذات التي تنتمي آنها في الفرد وتتمثل آنها في الجماعة. ثم يحاولون أن يبطوها الصفة الشرعية فيسدلون عليها لائحة البغض في الله؟؟؟

ولا يعجلن قارئي عليّ، بتهمة التجني أو إساءة الظن، بل ليرجع إلى نفسه فليتأمل في الحاجز الدقيق الذي يفصل ما بين بغض العاصي لوجه الله عز وجل وبغضه إرواءاً لحظ من حظوظ النفس، يجد أنه حاجز
دقٌق جداً، قل أن يتيح الإنسان إن لم يضع نفسه موضوع
الألم، على ضوء المشاعر والخلجات القائمة وراء
جنيه والتي لا يمكن... بعد الله عز وجل... أن يطلع عليها
أحد غيره...
وَهَا أَنَا أَضْرِبُ المَثَلَ بِنَفْسِي، فِلنَّمَ شَاءَ أن يَقِس
نفْسِه عَلَي، وأَلا شاء أن يَراها مَبْرَأةَ مِن كَل عِيبٍ: كَثِيرًا أَبَصْرُ في أَيَام شهر رَمَضان، رَجْلًا مَقِبَلًا
نحوه، في أَحد الطرق، فَأَن يُنَظَّرُ حتى يَشرِع
دَخِيْته إِلَى فمه وينفخها ليُجْعَلَ أَبْصِرُ أَنَّه مَفْتُر مَجْهَر
بالافظْتَارَ عَلْى قَارِعَة الطرِقَ بين النَّاس...!
لا ريب أن الغضب يعتلج في صدري لعمله هذا...
ولكن هل هو الغضب لوجه الله؟ ما أكثر ما سألت
نفسي هذا السؤال؟ وبدلت الجهاد لمعرفة الجواب
الصحيح، وَلَوْ تَبَيَّنْ لي، وَيَا لَلاَّسْفَ، أَنَّهُ قَدْ رَأَى كِبْرَى
من هذا الغضب إنما ثار في نفسي إنتصارًا لها وأُلَا من
أَن تَحْدِشَ «شَخَصيَّتي الدِّينيَّة» مِن قَبْلُ هَذَا الإِلَهانَس...!
فَإِنَّى أَفْرَضُ أَلَّا أَكُون بِيِظَاهَري الديني، وإن
يَجْهَرُ الَّجِل فيِ بِالْفَاتِرِه دون أن يكون مَنتِبهاً إِلَى، ثم
أَعْوَدُ إِلَى نفسي، فلا أَجِدُ فِيها مِن هَذَا الغضب إلَّا الشيء
اليسير.
إذن، فالغضب لم يكن لوجه الله، وإنما جاء رداً شخصياً على إساءة شخصية، استهدفت من كيالي شخصيتها الدينية، وما أكثر ما تنمو أثناً الإنسان وكبيرباؤه بغذاء من الشخصية الدينية التي عرف بها في الأوساط وبين الناس.

ونظر الف ذلك ما قد يقع بين أستاذ الدين وأحد طلابه المستديرين، وما يقع من نقاشات حادة بين طرفين: مسلم وغير مسلم، وما قد يلتقيه المسلم من سخرية جانب يتعلق بالدين في شخصه. الخ.

إن الغضب قد يستشري، في مثل هذه الأحوال، بين جوانح هذا المسلم، وقد يذهب به هذا الغضب مذهباً يحمله على معالجة الأمر بأسلوب صور شتي، ولكن عليه أن يسأل نفسه، فيما بينه وبين ربه عز وجل: أحقاً أنه الغضب لوجه الله عز وجل؟ أما أنا، فقد سألت نفسى هذا السؤال، فطالعتني الجواب الذي ذكرت. وما لي أكمه عن الناس وقد علمه رب العالمين؟.

فإذا كنا مخلصين لربنا في أمر الدعوة إلى الإسلام، فلنعرف جميعاً بأن الذي تناله نفوستنا وكبيرباؤنا مما نسمي الغضب في الله، أكثر جداً مما نقدمه إلى الله تعالى نيةً
صفية لوجهه، ولتعرض بأن هذه هي الآفة الكبرى
في حياة الداعين إلى الله.
وإذا نظر إلى ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله في
هذا الصدد:

... وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف
وغضب، بل نظر إليه نظر المرحوم عليه، ويرى
إقدامه على المعصية مصيبًا على نفسه، إذ المسلمون كنفس
واحدة. وهنأ آفة عظيمة ينبغي أن ينتظرواها، فإنها
مهمكة، وهي أن العالم يرى عند التعريف - عز نفسه
بالعلم وذل غيره بالجهل، فلما يقصد بالتعريف الإدلال
 وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحب العلم
 إلى خسسة الجهل، فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر
 أقيح في نفسه من المنكر الذي يتعرض عليه. وثال
 هذا المحاسب مثال من يخلص غيره من النار بإحرق
 نفسه وهو غاية في الجهل. وهذه مزلة عظيمة وغائدة
 هائلة وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان، إلا من
 عرف الله عيب نفسه، وفتح بصيرته بنور هدايته»(1).

فإذا طرحت حظ نفسك من الغضب على العايشين

(1) إحياء علوم الدين: 230/2.

43
والثائنين، ويقضي الغضب الذي لا سببه إلا التلبس بالمعصبة وهو الغضب في الله أمكنك أن تلاحظ كيف تلاقى الشفقه على هذا العاصي والرحمه له، مع الغضب من تلبسه بالمعصبة بل أمكنك أن تعلم أنهما متلازمان لا يفترقان بحال.

ومن النتائج الهامة لالتزام المسلم الداعي إلى الله تعالى، بهذا المبدأ، الذي لا يمكن أن يقوم إلا على معرفة هذا الفرق الكبير بين الغضب لله والغضب لنفس — أن يستحسن الداعي إليه الله تعالى بكل ما قد يناله من أذى أو إهانة تتعلق بشخصه وحقوقه الخاصة به، ويجاوزه بالصفح، ولا يقابله إلا باللطف والإحسان. فإذا وجد الأذى أو الإهانة قد اجتهت إلى حقوق الله عز وجل أو إلى شيء من شعائره وأحكامه، لم يبال بكل ما يملكه من روح ومال وجاه، في سبيل الانتصار لدين الله عز وجل وحراسة حقوقه وشعائره، أن ينالها أي إساءة أو خدش، على أن يسلك إلى ذلك سبيل الحكمة، وعلى ألا يمترز في عمله شيء من حظوظ النفس.

دليل ذلك أن رسول الله ﷺ ما انصر لنفسه في حياته -كلها- من مشرك أو مجرم ناله منه ضرر أو أذى
في شخصه مهما بلغ من الخطورة والشدة، فقد سمّت له اليهودية الشائة، كما ورد في الصحيحين، وعلم رسول الله ﷺ بذلك، وأقرأت المرأة بما فعلته، فلم يمسها بأي أذى، ولم يزد على أن قال: ما كان الله ليمتلك على ذلك!... وعلة أحد الأعراب المشركين، رسول الله ﷺ بيسير السيف، وهو نائم في ظل شجرة، فأيقظه قائلًا: من ينجمك مني يا محمد؟. فقال له الله، فسري الرعب في أوصال الأعرابي وسقط السيف من يده. فجلس الأعرابي بين يديه يسأله الرحمة والعفو، وجلس رسول الله ﷺ بلاطلنه ويسير عنه، وعفا عنه(1).

ولما تكلم مستحث، مع من تكلم من المنافقين، في حق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها - وكان رجلاً فقيراً، يمدّه أبو بكر رضي الله عنه بجراية دائمة من المال - أقسم أبو بكر أن يقطع عنه العون الذي كان يمده به، فأنزل الله ﷺ وجل على نبيه هذه الآية:

ولا يأتيل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله

(1) قصة الأعرابي هذه مع رسول الله ﷺ رواها البخاري من حديث جابر.
وليعفوا وليصفحوا، إلا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم (1).

وهكذا عتب الله على أبي بكر فيما أقسم عليه، إذ كان في ذلك فطاقة استجابة لحظ من حظوظ النفس، وأثر له اليان الإلهي أن يكفر عن قسمه ذلك، وأن يعود إلى ما كان عليه في معاملة مسطح، وأن يتجاوز حقه الشخصي في ذلك، وأن يعفو ويسلم عنه.

وما أجمل ما رتب الله على هذه النصيحة الأخلاقية، من قوله: إلا تحبون أن يغفر الله لكم؟! وإني لأرى في تضاعيف هذه الكلمة الاستفهامية الحلوة أعظم بشراء بما أدركه الرحمن سبحانه وتعالى من الرحمة الكبرى لعباده غداً، إذا حان يوم العرض والحساب.

هذا كله، فيما يمس حقوق الداعي وجانبه الشخصي ذاته.

فأما ما يتعلق بحقوق الله عز وجل، فإليك لتلاحظ أنه عليه ما كان يعرف في ذلك إلى الصفح والتجاوز من سبيل، ألم تر كيف غضب من سعي أولئك الذين سعوا للعفو عن المرأة المخزومة التي سرق، وما الذي

(1) النور: 21
قاله في خطيبته المشهورة تعليقاً على ذلك 4. ألم تر إلى شدته في القضاء على آثار الجاهلية وتقاليدها، دون أن يراعي في ذلك رحمة ولا قربة، وقوله وقد أعلن ذلك في خطابه يوم فتح مكة: ألا وان كل مأثرة من مأثرة الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوعن ألا وإن ربا الجاهلية موضوع كله ... 

* * *

المنطق الثالث، ويتمثل في اليقين بأن القيام بأعباء الدعوة إلى الإسلام، ليس إلا أداء الواجب يدخل في جملة التكليفات الإسلامية التي خاطب الله بها المسلمين. فيلس من شأن الداعي إلى الله تعالى أن يخلق الهدية في قلوب الناس، وليس إليه تبديل حال إجبارية بأخرى، ولن تست إليه عهدة إيجاد شيء من النتائج والآمال المرتبة من وراء القيام بأعباء الدعوة ومقتضياتها بنية. بل تنهي وظيفته التي كلفه الله عز وجل بها، عند حدود تلك النهات التي تنقذ عندها قدراته التي منحه الله إياها، من بيان باللسان، وحكمة في معالجة الأمور، وتقديم للمال إذا استناد الأمر، وضحية بالروح والدم إذا وصلت ضرورات الدعوة إلى ذلك. كل ذلك مع التزام القواعد والأحكام الشرعية التي من شأنها أن 47
فإذا أدى المسلم الواجب الذي عليه، بشأن الدعوة، فليدع النتيجة إلى الله تعالى وليفوض الأمر إليه، ولا يرهن نفسه بشيء لم يجعل الله مقاليدها إليه، ولا يسعين في الأمر سعي من يتوهم أن زمام الأمور كلها بيده، فهو الذي يسوق الأسباب ويأتي بالناتج، وينيغ الأمور.

وأما أكثر المسلمين الذين يتهون عن هذه النقطة أيضاً، فهي من أهم المطالب التي يجب أن ترتكي علية أعمال الدعوة إلى الله عز وجل. فتراهم يحمّلون أنفسهم ما لم يكلفهم الله تعالى به ولا يذن لهم فيه، جلباً للنتائج وتطلعاً إلى الغايات، وربما قفزوا، في غمار تطلعاتهم هذه، فوق كثير من الوسائل والأسباب التي ألزمهم الله تعالى بها، مما يدخل تحت إمكاناتهم، ويجضع لطاقاتهم. وحرصوا نظراتهم وشدوا جهودهم نحو النتيجة التي هي من خلق الله عز وجل، والتي لم يكلف الله أحداً من عباده بأن يحمل نفسه أيًّ رهق في شأنها.

فيا الله من حال هؤلاء!.. يعرضون عن واجب الالتجاه الشديد إلى الله، والإكثار من ذكره في الخلوات
والجدول، والإكثر من مراقبة النفس والسعى إلى تزكيتها بكل الوسائل، كما يعرضون عن مراقبة بيوتهم والقيام بدقة على إصلاح حال الأهل والأولاد، وإشاعة ذكر الله وعبادته بين أعضاء الأسرة - يعرضون عن هذه الواجبات كلها - وهي لباب الدعوة الإسلامية والعمود الفقري فيها، ثم يجلسون يتشاؤكون (في هم منقطع النظر) حال المسلمين، وغياب المجتمع الإسلامي!... ويسهرون الليلالي لبحث السبل التي يمكنهم من إقامة المجتمع الإسلامي، وتطبيق الحكم الإسلامي!...
كان المجتمع الإسلامي قبة عظيمة كانت تظلل المسلمين، ثم نحبت عنهم بحبال وألقيت في أرض بعيدة، فليس في الأمر إلا أن يجتمع المسلمون ليشدوها فيعيدوها إلى حيث كانت!...

ولو أنهم تدبروا الأمر من منطلق العبودية لله تعالى في سائر أعمالهم، لأدركوا أن قيام المجتمع على دعائم الإسلام وحكمه ونظامه، ليس إلا أجرًا من الله تعالى يخلقه هو هم، من حيث يحتسبون أولاً يحتسبون في مقابل تطبيقهم الإسلام كله على أنفسهم أولاً، ثم على أهليهم وأولادهم ومن يلوذون بهم ثانياً، ثم على الإكثر من ذكر الله والتميل إليه والضراعته لثالثاً.
وهذا هو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاته، مع أصحابه. لم يطرقوا باب المجتمع الإسلامي إلا بهذه الأعمال التي هي حدود وظائفهم وتكليفهمهم. فلما صدقو الله تعالى في القيام بها، وقادوا بين يدي ذلك قلوبًا زكيت بوقود الخشية من الله تعالى، بدل الله بحالمهم التي كانوا عليها حالًا أخرى، وأقام لهم مجتمعاً رضية سعياً سيئاً قوياً قابلاً على دعائم الإسلام وحكمه، ثم أقامهم حراً عليه، بالأعمال والوظائف. ذاتها التي ألمهم الله تعالى بها.

ولعل مره هذه الغفلة التي يقع فيها كثير من المسلمين اليوم، أنهم يحسون طبيعة الدعوة إلى الإسلام كطبيعة الدعوة التي يمارسها أصحاب الأنظمة والمذاهب الأخرى إلى مذاهبهم، فأصحاب هذه المذاهب لا يعتمدون إلا على أنفسهم في تطبيقها وإشاعتها في المجتمع، إذ هي مذاهب وضعية هم الذين بتدعوها وهم المسؤولون إذن عن كل ما يتعلق بأمرها ورعايتها وتطبيقها وصغر المجتمعات بها.

فإننجرف كثير من المسلمين الذين يمارسون الدعوة إلى الإسلام، إلى السبيل ذاته، ويسعون بالطرق والأساليب ذاتها، كما لو كان الإسلام مذهبهم الذي يابدوه لأنفسهم، في مقابل ما ابتدع الآخرون لأنفسهم من
الأنظمة والمذاهب الأخرى!... فتراهم يتنافسون أو يتصارعون معًا على طريق واحدة من الأسلوب والمعالجة وتصور الأمور!... ويسعون أنهم في الحقيقة ليسوا إلا موظفين لله جل جلاله، للقيام بمهام معينة تدخل في حدود طاقاتهم، مقابل ما يحققه هولم من المجتمع الإسلامي المشرود.

وأنك تتراهم، في غمار هذا التقليد لهم، والنسيان لهوياتهم ووظائفهم، لا يهمون من الإسلام إلا بما فيه من الواجهة الاجتماعية التنظيمية... ليقارعوا به الأنظمة الأخرى!... وعندئذ يسقط الفرق بينهم وبين أولئك الآخرين، في ميزان الله تعالى وحكمه. إذ لا قيمة لشيء من الأحكام والأنظمة الإسلامية إلا من حيث هي دين يخضع من خلاله الإنسان لسلطان الله وألوهيته. فإذا أهل الأسنان الدينية منها، فما أكثر ما تتفق الفروع السطحية مع كثير من المذاهب والآراء.

وهذا هو السر في أن هؤلاء الناس، لا يفهمون من كلمة "الحكم بما أنزل الله" في نطاق الدعوة الإسلامية، إلا ما يبرز منه في واجهة المجتمع ويتكون منه النظام العام. فأما الحكم بما أنزل الله في معاملة الإنسان مع نفسه ومع أهل بيته وأسرته وأولاده وفي
علاقته وتعامله مع أصدقائه وسائر الناس، فما أكثر ما يغفلون عنه بل ربما أعرضوا عنه إعرضاً تاماً!...

الآثار التي تتحقق بالالتزام هذه المنطلقات:

إذا التزم المسلم بهذه المنطلقات الثلاثة للسير في طريق الدعوة الإسلامية، فعلم أن الدعوة إلى الله عبادة، وكانت هي الحافز له إليها، وعلم أنه مكلف بتوعية الناس بالإسلام وحقيقة ودلائه، من منطلق الرحمة بهم والشفقة عليهم كي لا يقعوا غداً في نيران النذمة، إذا كشف أمامهم الغطاء وظهرت الحقائق، وأنه ليس مكلفًا إلا بالأسباب الداخلية في طوقفه، أما النتائج فبخلق الله وتقديره – أقول: إذا التزم المسلم بهذه المنطلقات، أصغت له الآذان، واستجابت له القلوب، وكان عمله كمن يحرث في تربة صالحة لينة.

ذلك لأن الذي يتزعم بهذه المنطلقات، لن يغضب لنفسه ولن ينتصر لشخصه إذا ناله ضر ومن يعرّفه بالإسلام ويدعوه إليه، بل ستحمله الرحمة به والشفقة عليه على الصفح عنه وخفض الجانب له. ولا بد أن يستشم الطرف الآخر وجود هذه المشاعر عنه، ويدرك إخلاصه في نصحه، وأنه لا ينطلق فيما يدعوه إليه من رغبة

52
في بسط أنانيته وتغذية كبرائته، فيثير ذلك في نفسه حوافز الإقبال إليه والتأمل في نصائحه وأقواله، ولا بد عندئذ أن تستيقظ الفطرة الإسلامية بين جوانبه، فيقر بالحق ويذعن له، وما يمنعه بعد ذلك من تقويم سلوكه وإصلاح حاله، إلا ما قد يكون لشهوات النفس من سلطان عليه، فيتعثر في طريق التطبيق والسلوك، حسب قوة شخصيته أمام سلطان تلك الشهوات، وهذه المرحلة علاج آخر، ليس هذا مجال البحث فيه.

وبالمقابل، فإن أكثر ما يصد المنحرفين عن سباع كلمة الحق، ما قد يشعرون به في تضاعيفها من التعالي والأنانية، وحب الانتصار للنفس أو للجماعة، فيثير هذا الشعور لديهم (بوجب رد الفعل) تعاليًا أشدًا، وأنانية أقوى، واندفاعًا أسرع إلى الانتصار للذات، وهكذا توقف العصبية، عصبية مثلها، فتتكاثف من ذلك الحجاب بين الطرفين، ويمضي الداعي إلى الإسلام، وهو لم يأتي من جهده ببطائل، ولم يحمل قلبه إلا مزيدًا من أسباب الضغينة والعقد، التي قد يخيل إليها، لفرط جهله، أنها ليست إلا مشاعر الغضب لله عز وجل.

ولكن الذي التزم بالمنطلقات التي ذكرناها واصطبغت نفسه بها، لن يجد التعالي إلى نفسه من سبيل، فمن أين له أن يعلم الخائعة التي سيختتم الله لها بها، ومن أين له
أن يعلم بأنه أفضل حالًا في ميزان الله عز وجل من هذا الذي يقبل إليه بالنصيحة والإرشاد؟ كم من مستقيم على الطاعات قائم بالدعوة إلى الحق، وهو مزهو ومعجب بنفسه، يتعالى على الناس والأقران بذلك، فلا تغده طاعاته وسائر أعماله إلا بعدا عن الله عز وجل. وكم من عاص مستهتر بأوامر الله تعالى، وهو يعاني من ذل نفسه ويشعر بسوء حاله، ولا يضع نفسه إلا في أراذل الناس، ويفيض قلبه حسرة مما هو فيه، فيجعل له الله تعالى من انكسار نفسه وشعوره بضلالة ذاته، كفارة لمعاصيه، ثم ما هو إلا أن يوفقه الله لتوية صادقة وعزم على السير إلى مرضاه الله بقوة وثبات!.. وقدماً قال ابن عطاء الله السكيندري رحمه الله تعالى في حكمة:

"رب مصيبة أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً."

فسائر المسلم المخلص في دعوته لوجه الله عز وجل، أن يدعوا الشاردين والمنحرفين إلى الله عز وجل، وهو يفرض أنهم ربما كانوا عند الله أحسن حالًا منه، وأفضل مالاً. فإنه لا يدري العاقبة أبداً. ولكنها مهمة كلفه الله تعالى بها: أن يذكر الناس بالله ويدعوهم إليه، والله تعالى أعلم بحال عباده وما أضرمته نياتهم وما سيئته إليه حاليهم، وما دام الأمر هكذا، فليس

54
لإنسان أن يزكي نفسه وأن يتسامي بها على الآخرين. وكل من فعل ذلك فقد أثبت بالبرهان الذي لا مرد له، أنه شر الناس جميعاً.
ولتعلم أن رجال الدعوة في الإسلام منذ عصر الصحابة فا بعده، لم يفتحوا أفكار الناس بالهدية والإرشاد، بكثير بلاغة ولا بفون فصاححة أو بيان، ولكنهم استحوذوا على تلك الأفكارية ببركة التزامهم.
لهذه المنطلقين الثلاثة واصطباغ نفوسهم بها.
بل، أسنفر الله، إنهم لم يستحوذوا على شيء.
ولكن الله تعالى - وقد علم منهم صدق العبودية والتجرد الكامل من الغرض والهوى - جعل لكلماتهم آذانا صاغية وقروباً واعية. وجل من قضيت حكمته أن يسخر عباده بعضهم لبعض في كلا أمري الدنيا والآخرة، وأن يجعل بعضهم مناط مثوبة لبعض.
منهجية الدعوة

وهي الأسوب أو النظام الذي يستحسن أو يجب اتباعه في أعمال الدعوة وشؤون الإرشاد والتوجيه.
وإذا أساس الاستحسان أو الوجوب فيه، كونه أقرب الطرق وأجدها لتحقيق الغاية من الدعوة، كونه السبيل الأمثل إلى قناعة العقول ورضاء النفوس.
وتبين ضرورة اتباع النهج الذي سنذكر فيما يلي.

خلاصة عنه، من حقيقيتين.

الحقيقة الأولى أن مبادئ الإسلام وأحكامه تنقسم إلى أسس تتعلق بالأشياء العقلية، وإلى فروع تتعلق بما يترتب على تلك الأسس من الأعمال والسلوك. والأساس العقلي نفسها تتفاوت في الشمول والترتيب العقلي. بحيث إنك تأمل فترى أن النجوم بأوعسها شمولًا ينحض دليلاً على الذي يليه. فهي سلسلة من الحقائق، لا بد إذا سيرت معها بدلاً من أولاها، أن تجد كل حلقة منها تهديك إلى الحلقة التي تليها، وهكذا.

وإذا كانت حقائق الإسلام وأحكامه متتابعة.
بعد هذا الترتيب، فلا بد أن يكون النهج الإرشادي أو التعليمي له متآلفًا مع هذا الترتيب متسقاً مع خطوته.

الحقيقة الثانية أن الإنسان من شأنه أن يتأثر بما يتلقاه من ضروب التوجيه، بدأ aun اثنتين: دافع عقلي ودافع نفسي. وقيمة الدافع النفسي تكون في أكثر الأحيان أشد فاعلية وأقوى تأثيراً من الدافع العقلي. إنك، إذا أمعنت النظر، رأيت أن الدوافع النفسية للسلوك، تشكل عند أكثر الناس ما لا يقل عن 60٪ على حين لا يزيد الدافع العقلي عندهم على 40٪ من مجموع الدوافع السلوكية كلها، وليس في حدثنا الآن مجال لتحليل هذه الظاهرة والكشف عن أسبابها.

إذا المهم هنا أن نعلم بأن على الداعي أن يحسب للنفس الإنسانية حسابها، وأن يتأكد من أن أفراد الناس للحق لا يتعلق بالقناعات العقلية وحدها، بل يتعلق قدر كبير منه بعد حصول هذه القناعات بترويج النفسوس على الخضوع له والانسجام معه. وهذا من شأنه أن يضطر المرشد والداعي إلى التزام منهج من شأنه أن يجذب النفسوس شيئاً فشيئاً إلى الحق الذي آمنه به العقول، وأن يحذر من سلك سبيل يثير النفسوس إلى الاشتمار أو التبرم بما قد آمن به وصدقه العقل!...
فإن هاتين الحقيقتين تنبعان ضرورة التزام الداعي إلى الله بمنهج يسير عليه.
وإليك لتلاحظ أن الحقيقة الأولى مردها إلى المنهج العلمي الذي يجب اتباعه في البحث عن الحقيقة. وان الحقيقة الثانية مردها إلى تهذيب النفس وتصعدها شيئاً فشيئاً إلى مستوى اليقينات العقلية.

فأما ما تقضيه ضرورة الاستجابة للحقيقة الأولى فيلخص في اتباع ما يلي:
أ - يجب النظر في حال من ندعوه إلى الله تعالى ونحصره بحقائق الإسلام، وما استيقظه عقله من مبادئ الاعتقادية. فبدأ معه من حيث وصل إليه وصولاً صحيحاً سليماً. فإن لم يكن قد تجمع في يقينه العقلي أي شيء من حقائق الإسلام بعد، فلا بد من الرجوع معه إلى النقطة الأساسية الأولى، إلا وهي وجود الله. عز وجل، وعرض البراهين والأدلة العلمية على ذلك. ومن الخطأ الفادح أن تنزل بمثل هذا الإنسان إلى أي حقيقة أخرى تقف دون مسألة الإيمان بوجود الله، فتحدثه عنها أو تناقش فيها، أو أن تقتاد له إذا أراد أن يصرفك عن هذه المسألة الأساسية، إلى الخوض في

58
أي المسائل الاعتقادية الأخرى المتفرعة عنها. بل إن عليك أن تعلم بأنك في انحرافك إلى هذه الخطأ تبذل جهداً ضائعاً لن تعود منه بأي جدواً، بل إن عليك أن تعلم بأن الرجل منطقية مع نفسه في ألا يضطهد إلى شيء من براهينك التي تعرضها تلك المسائل التي تأتي في الترتيب المتدرج بعد مسألة اليقين بوجود الله عز وجل، وللإلا يصدق واحدة منها. وهو إن شغلك بهذه المسائل، بمع جهوده بالله عز وجل، لا يفعل ذلك إلا صرفاً لك عن الأساس السيئه الذي يكمن فيه حل المشاكل كلها.

فإذا انتهيت معه إلى اليقين بوجود الله عز وجل. فقد آن لك عندئذ أن تنتقل معه إلى الحديث عن صفات الله عز وجل وما يليه به وما لا يليه. فإذا انتهى معك إلى يقين بذلك، فقد آن أن تشرح له دلالات النبوات وبراهين نبوة الأنبياء جميعاً، ونبوة محمد عليه السلام خاتم الرسل والأنبياء، وأن تحدثه بعد ذلك عن القرآن ودلائل كونه كلام رب العالمين، وعن مظاهر الإعجاز فيه، ثم عن معنى الدين الذي أنزلله الله على الأنبياء جميعاً وكيف أنه دين واحد، بل لا يمكن إلا أن يكون ديناً واحداً. تحدث فيه العقيدة التي هي الأساس، وتطورت التشريعات التي هي الفروع.
واعلم أنه ما يكابر إنسان في جحدود شيء من هذه الحقيقات التي مغرساً اليقين العقلي، ويكون صادقاً مع نفسه في جحدوده بها، إلا لأنه لم يفزغ بعد من فهم ما هو أصل لها. فعليك أن تجعل من الرجوع به إلى تلك الأصول، دليلاً يهديه إلى اليقين بهذا الذي يعن في جحدوده وإنيكارة.

فأنا إذا كان موقناً بجميع المبادئ الاعتقادية للإسلام، ولكنه شارد عن أن يضبط نفسه بالسلوك الذي أمره الله به. فاعلم أنه مصاب بمشكلات نفسية تعيقه عن السلوك الصحيح وإن ذلك علاجاً آخر سأأتي إلى ذكره إن شاء الله بعد قليل.

٢٣ - يجب - إلى جانب ما ذكرنا في البند الأول- التحاكم لإقناع هذا الجاهل أو المنكر إلى البراهين المنطقة والعلمية الصافية، ووضعها وحدها مجرد عن أي شئية أخرى، ميزاناً لكل ما يجب أن تؤمن به.

كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نوع الشهات والمشكلات المتحكمة في ذهن هذا الذي نحاوره ونباحمه، فعليها إلقاء بحجة أنها شهات باطلة لا قيمة لها. فهذه دعوى لا تثبت وما ينبغي أن تثبت
إلا بعد عرض الدليل العلمي على أنها حقًا شهادات باطلة.

وهذا يضطر كل من ينضط ثقة الإسلام اليوم ويدعونهم إلى الله، أن يكون ملمًا بكل العلوم المختلفة التي يمكن أن يكون لها مدخل إلى إثارة شهات تتعلق بعقائد الإسلام. ومن أبرزها المذاهب الفلسفية المختلفة بما لها أو لبعضها من جذور يونانية، والتاريخ الطبيعي، وعلوم الاجتياع، وعلم النفس.. الخ.

ويلاحظ مع من تسأله إلى فكره شبه من بعض هذه الفلسفات والعلوم المختلفة، أن تلزم به بمنهج القرآن وتنبه إلى كوامن الهدية والأعجاز فيه، ثم تعرض عما جاء يشكو إليه من شبه ومشكلات خاصة لا يقوى على التخلص منها.

ولتعلم أن في انصرفه معه إلى مشكلاته الفلسفية أو العلمية المختلفة، تشرحها، ثم تبين بطلانها، بنوازين علمية صافية، تنفيذاً لأمر الله عز وجل إذ قال في محكمت نباهه: أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والوعظة الحسنة وجمادلهما بالتي هي أحسن.

فأي معنى يستقيع للجدال، إن لم يكن أخذا وردًا معهم بصدع المشكلات أو الشبه التي ترراؤُهُم؟ فأتى ترى إذن أنك لا تخرج عن المنهج القرآني قيد شعره.
ما دمت ملتزماً بمضمون هذه الآية العامة، فاصداً وجه الله عز وجل في الأخذ بيد إخوانك إلى صراط الله عز وجل، مستعماً في ذلك الوسيلة العلمية المفيدة التي يتطلبها حال هؤلاء الإخوة.

وإذا انتبقي علم الكلام في تاريخ المسلمين من هذه الضرورة ذاتها، ولولاه لكانت عقول أكثر المسلمين اليوم فرصة للفلسفة اليونانية والفلسفات المشابهة الأخرى.

وأما ما تقتضيه ضرورة الاستجابة للحقيقة الثانية فيمكن تلخيصه هو الآخر فيما يلي:

أ - لا بد من ملاحظة الفرق بين من وظيفته إرشاد الناس ودعوتهم إلى الله عز وجل، ومن وظيفته الجلوس للفتية وبيان أحكام الحلال والحرام.

أما الداعي إلى الله تعالى فعمله يستهدف غاية شاملة كبرى، تتمثل في انصباب العقول إلى الحق وفي إنسجام النفوس معه وإنقياده له، وما التزام الأحكام الشرعية إلا جزء يسير من هذه الغاية الكبرى.

وأما المفتي فوظيفته أن يجيب الناس، إذا سألوه عن مقاطع الأحكام والحقوق، تعليماً وتبيناً، لا
إرشاداً وتوجيهاً.

إذا تبين لك هذا الفرق، فإن على الداعي إلى الله عز وجل، ألا يحصر نفسه أثناء ممارسته لوظائف الدعوة وأعمالها في مهمة المفتي. وأن يوجه الناس إلى الالتزام بالأحكام. من خلال طريق عريضة تنتفع للمراعاة والحكمية في معالجة الأمور.

وليس معنى هذا الكلام أن للداعي يتلاعب بأحكام الحرام والحلام، حسب ما يريد أنه المصلحة، من حيث يضبط المفتي نفسه بها دون أي تبديل أو تغيير.

إن التلاعب بالأحكام لا يجوز الإقدام عليه لأحد مفتيًا كان أو غيره من الناس. ولكن على الداعي أن يقدر مدى صعوبة انتقال الإنسان طفراً من منتهى التقلت والشروط إلى كامل الالتزام والانضباط بالأحكام. فيعالج ذلك بالحكمية التي لا تلجه إليه التلاعب بالأحكام ولا تحبه فيما يشبه وظيفة المفتي إذ يرى أن كل ما هو مكلف به أن يقدم للناس قائمة دقيقة تتضمن أحكام الحلال والمحرمات والواجبات.

و على سبيل المثال: إن الفتاة التي تأثرت بساع كلمة الحق عقولاً ووجدانًا، فأخذت تنقل نفسها شيئاً فشيئاً إلى صراط الالتزام بأحكام الله عز وجل، لا يجوز
في نطاق الدعوة وسياستها - لمن رآها في أوائل الطريق أو منتصفه، أن يجمع سائر الواجبات التي لم تلتزم بها بعد، فيجعل منها مشكلة يضعها أمامها، أو عبئ يلقيه مرة واحدة على كاهلها. بل الواجب عليه العكس: أن يهتفها بما قد وصلته إليه من الالتزامات والإنجازات، وأن يذكرها بعظم ما لها من أجر عبد الله عز وجل على ما قد حققه من ذلك، ثم ينبهها إلى أن الطريق طويل أمامها بعد، وأن يحافظها إلى المتابعة، بالأسلوب الذي سنشرحه بعد قليل.

سألني فتاة، وقد فرحت أنها استطاعت بعد طويل شرود، أن تستر أكثر شعرها بخمار وضعته على رأسها، وأن تجعل ثيابها أكثر سترًا وحشمة من قبل: أصحيح أن الله لا يقبل مني شيئاً من أعمالي ما دمت غير ملتزمة بالستر الكامل؟

فقلت لها: ثقي بأن الله تعالى لو لم يكن أراد بك الخير والتوافق لما سَرِّك سبيله هذا الإيمان به، ولما أعانك على تحقيق هذه الخطوة التي لن ننقص من أجرها شيء، ما دمت سعت إليها رغبة في تحقيق مرضاة الله عز وجل. وكوني على يقين بأنك بمقدار ما تقبلين إلى الله تعالى بتطبيق المزيد من أوامره، يقبل إليك بمزيد
من الأجر والهدية والإسعاد في الدنيا والآخرة.

إني لم أغير شيئاً من أحكام الله تعالى بهذا الكلام، ولكنني لم أقف أيضاً موقف المفتي الذي لا يعنيه أكثر من أن يذكر حرفية الحكم الشرعي، فلهذا الموقف مجال آخر. وأشرمتها بالغبطة لما وافقها الله إليه، أكثر من أن أشعرها بما يتظرها من العقاب إن هي لم تبادر إلى تدارك النقائص في أقرب حين. وذلك هو هدي سيدنا رسول الله في إرشاد الناس ودعوتهم إلى التقيد بأوامر الله عز وجل.

و على سبيل المثال أيضاً: إفرض أن مسلماً هدي الله شاباً على يديه، فآمن بعد جهود. أفيكون من حق مرشده هذا أن يضعه بعد ذلك مباشرة أمام قائمة الالتزامات كلها، وأن يلزمه بعزائم الأمور؟. الحقيقة أن إلزمته بذلك كله ليس من الحكمة التي أمر الله تعالى أن تقوم الدعوة على أساسها، حتى وإن أظهر الشاب نفسه نشاطاً وجلداً في تحمل ذلك كله.

لذلك لأن الشاب بشير إن يقطنه العقلية بشدة بعده عن الحق وال طريق السوي السليم، فيدفع بعقله إلى الالتزام بما قد آمن به، ولكن عواطفه كلها تكون آنذاك ملكاً لرغابه وشهواته النفسية. فربما اندفع إلى

65
مغالبة هواه وقهر جموحه الشهواني ، بتحميس مرشده
له وبدافع اليقين العقلي الذي اكتسبه ، وكلما ازداد
تحملًا للأعباء التكليفية وتمسكًا بعزائم الأمور ، ازدادت
حافز التمرد النفسي بين جنبه .. وهو يضغط خلال
ذلك على هذه الحافز المعتلجة وراء صدره .. وما
يدري أنه علاج مسكت موقوت ، ما دامت البقطة
العقلية لم تتصبب معها تركية نفسية !. فما هو إلا تتفجر
هذه الحافز لديه ذات مرة بثورة نفسية عارمة يضيع
فيها رشذ العقل وبذبه سلطانه ، فيعود الشاب إلى
شر من ماضيه الذي كان عليه من قبل .
وإني لأعلم شبابًا كثيرين اغتبط مرشدوهم ببدايتهم
العقلية ، فأخذوا يحملونهم الغزائم ويكفونهم بالانتقاء
السريع المطلق عن كل ما اعتادوا عليه من السلوك
وأساليب العيش ، وبحمل أثقال الواجبات والآداب
المختلفة . فما شدوا أنفسهم تحت ذلك العبء إلا أباماً
يسيرة ، ثم ما هو إلا أن ارتدوا على أعقابهم ، كما
ترتد قطعة من المطاط شدتها إلى أقصى ما يمكن ، ثم
أرختها يدك عنها ! ..

ولكن هل يعني هذا الذي أقوله ، أن على المرشد
أو الموجه ، أن يترك الإنسان الذي هده الله تعالى إلى
معرفة الحق وإلى الإسلام به، عند الحدود التي وصل إليها، وألا يبالى بسلوكه والمعاصي التي يقترفها في جنب الله عز وجل؟

لا.. ليس هذا ما أعنيه بالكلام الذي ذكرته الآن.

إن الذي عنيته أن طريق الدعوة إلى تقويم السلوك، غير طريق الدعوة إلى معرفة الحق. فلا يظتن الداعي أو المرشد، أنه وقد أفع صاحبه بحقائق الإيمان عن طريق المحاكمات العقلية وعرض الحجج والبراهين. يستطيع أن يحمله بالطريق ذاته على الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي، وأن الأمر سيكون من السهولة كمجيء النتائج بعد المقدمات! ...

إن هذا التصور خطأ كبير. فإن هناك حواجز وعقبات نفسية كبرى، تصدّه عن التوجه بواجبات السلوك الإسلامي، على الرغم مما انتهى إليه من اليمين الاعتقادي.

لذا، فإن على الداعي أن يسلك سبيلاً أخرى مع صاحبه، في مرحلة تقويم السلوك، وهذه السبيل هي التي سلخص الحديث عنها بانتقالنا إلى الأمر الثاني:

۲- على الداعي إلى الله تعالى ألا يلزم صاحبه، وقد هداه الله عز وجل إلى معرفة الحق واليدين به.

٦٧
بشيء من الواجبات السلوكية، بشكل مباشر، إلا ما كان داخلاً في أركان الإسلام، وهو الصلاة والصوم، ثم الزكاة والحج إن كانا واجبين عليه.

فالصلاة ثم الصيام إذن، هما اللذان يجب على المرشد أو الداعي، أن يأخذ صاحبه بهما مطلقاً، وبشكل مباشر.

وأما بقية الواجبات والآداب السلوكية المتمثلة في تطبيق الأوامر وتجنب النواحي، فتعلم أن سبيل دفع هذا الإنسان إليها إذاً يكون بتوجهه إلى ما يلي:

أ – تكليفه بأقامة الصلاوات مع الجماعات ما أمكن ذلك، وتبصيره بأداب الصلاة من خشوع فيها، وسن من قبلها ومن بعدها، وبأهمية الدعاء يتوجه به إلى الله عز وجل بعد ذلك. وقد علمت أن الصلاة هي أول ما ينفي صاحبه عن الفحشاء.

ب – إلزامه بوظيفة دائمة من تلاوة القرآن، (بعد إتقان تلاوته ساعةً على أحد المتقنين لتلاوته في كل يوم، وتلكن كمية ذلك حسب المستطاع)، ومن دراسة السيرة النبوية.

ج – أخذه بورد بسيط من الأذكار يؤديه في أوقات فراغه ويفضل أوقات البكور والآصال. بعد أن

٦٨
يَبَسَر بمعنى الذكر الذي طلبه الله تعالى من عباده،
والآداب التي يجب أن يلتزمها أثناء الذكر. ويستحسن
خصوصة بالإكثار من الاستغفار ومن الصلاة على رسول
الله صلى الله عليه وسلم.

د – نقله شيئاً فشيئاً من جوهر الذي كان فيه، والذي
يتمثل، أول ما يتمثل، بأصدقائك السوء، وبطانته
الدعوة إلى مسائل التمزيق والضياع، ثم أحاطته بصدقائه
مؤمنين يتحلون بأسمى معاني الخلق والفضيلة، يقوله
من إخلاصهم ورعايتهم وخدمتهم له، ما يبعث في
نفسه الأنس بهم، ويشعره بعظم الفرق بين الصاحب
في الطريق إلى الله والصاحب في أودية الضلال والضياع.
إن على الداعي إلى الله عز وجل، إذا كان حريصاً
على صاحبه أن ينضبط بالآداب والواجبات السلوكية
في الإسلام، أن يشد ويد في أخذه بهذه الوظائف
الأربع التي ذكرناها، فإنه إن استقام على ذلك حيَّة
من الزمن، تفتحت في نفسه مشاعر الرغبة في رحمة
الله تعالى وألفافه، والرهبة من سخطه وعظم عقابه.
ويسوف يكون لهذة المشاعر أثر كبير في تركية نفسه
ونقلها من حالة الأمر بالسوء، إلى حالة من أحوال
الطمانينة والرضاء.
وعندئذ ترى أنه هو الذي يدؤك - في كثير من الخوف والقلق - بالسؤال لما يجب أن يفعل ويترك، في نطاق حياته السلوكية، ولسوف يستشعر سوء واقعه، ويجيب في أعمق نفسه دافع يلح عليه أن يصطلح مع الله عز وجل بالإقرار عن معاصيه وبالتزام أوامره وارشاداته، ما أمكنه السبيل إلى ذلك.

فإذا وجدت بوادر هذا السمو النفسي لديه، وإقباله إليك بهذه المشاعر، فكيفك أن تضع أمامه الأجوبة على أسئلته، بعد يقينك من معرفته على وجهها الصحيح، تاركاً له أن يتصرف في الأمر حسب الحال التي ارتفت إليها نفسه، إنما المهم أن تلازمه في أخذ تلك المناهج الذي ذكرناه، بكل وسيلة حكمة ممكنة.

إن النتيجة التي لا بد أن ترقى إليها حال شاب النزم القيام بهذا المناهج، هي انضباطه الكلي بالسلوك الإسلامي، واصطغاخ نفسه وأساسها بآداب الإسلام وتعليماته، بدافع من مشاعر وإيحاءات تابعة من أعماق كيانه ونفسه. ومن هنا ترسم أسباب الاستقامة لديه، فلا يكون مصيره كامير ذلك الذي ألقاه مرضده بها إلصاقاً وتركه يرزح تحت أعبائها ثم قال له: سر على بركة الله!

٧٠
على أن الاستمرار في أخذ العلاج والإرتباط الدائم، وذلك المناهج ضرورة لمناصف منها، لا في حق هذا الوافد الجديد إلى الإسلام وحده، بل في حق جميع المسلمين على اختلاف درجاتهم وقربهم إلى الله عز وجل. فإن النفس البشرية ما تزال كما هي في تطعُّبُها وأهوائها وموطها، وإذا تركت خيتًا من الزمن دون حراسة من تغذيتها بمشاعر الرغبة في رحمة الله وإكرامه، والرهبة من سخطه وعقابه، فإنها سرعان ما تستيقظ إلى أهوائها وانحرافاتها، وسرعان ما تعود إليها القوة على التمرد والبغي، فتنقود صاحبها إلى مطارح الشقاء والهلاك.

وإذا كان الثبات على هذا العلاج هو وصية الله عز وجل لرسوله، يكررها في كثير من آياته، فما بالك بمن دونه من عامة الناس؟ أضغر بصيرتك إلى هذه الوصية لي:
"فاصبر لحكم ربك ولا تطبع منهم آمنًا أو كفورًا، وذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلةً طويلةً" الدهر: 25.

إلى هذه الوصية الثانية.
"فأصاب على ما يقولون وسبيح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود" ق : 40

وإلى هذه الوصية الأخرى :

"وأذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين" الأعراف 204

* * *

والخلاصة أن الكيان الإنساني يهض على دعامتين عظيمتين ، هما العقل ، والوجودان . فأما مبادئ الإسلام الاعتقادية ، فإنما تكون الدعوة إليها بتنبيه العقل وارشاده ، وأما أحكامه وآدابه السلوكية فإنما تكون الدعوة إليها بإيقاظ مشاعر الرغبة والرهبة في طوابا الوجان . ولا يكون ذلك إلا باتباع الوسائل التي سبق بيانها .

ثم إن المهم ، كما أوضحتنا عند الحديث عن منطقات الدعوة ، أن تبتسم نوازع العصبية ممن تدعوه إلى الله ، باجتنابها قبل كل شيء من أغوار نفسك ، وأن تحرره من أنايته وانصاره لذاته ، بتحرير نفسك مما قبل كل شيء . وعندئذ يصفو طريق الحوار بينك
وبينه من جميع الكدورات والشوارب، وينفذ حديثك إلى عقله بالقناعة واليقين، ثم إلى قلبه بالتأثير والانشراح.

والله وحده المستعان في كل ذلك.
مشكلات الدعوة

ليس للدعوة إلى الإسلام، بحد ذاتها، من مشكلات بإتناب المشكلات من جهل من قد يمارس الدعوة إلى الإسلام. يدعو الناس إليه دون أن يبتصر أحكامه، مكتفاً بالاعتداد على سدقة عواطفه ومحبته للإسلام!

وإذا اكتفى المسلم، في مجال الدعوة إلى الإسلام، بالعواطف التي يعتز بها، بعيداً عن الاهتمام بدقة علومه وأحكامه، طبقاً لما دلت عليه نصوص القرآن والسنة الصحيحة، ولم أتتفق عليه آئمة المسلمين وسلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم. فإن عواطفه ستتأثر به عن كثير من حقائق الإسلام وأحكامه التي تضمنها كتاب الله أو أرشدنا إليها سنة رسوله، أو أقتبسا منهما أو من أجرها السلف الصالح من آئمة المسلمين اجتهاداً، فتلاقى كلمتهم عليه.

إذا العواطف ما لم تلجم بلنجام العلم وقواعده، مستتحول إلى سلاح بيد النفس وعواطفها، سواء أعلم صاحب هذه العواطف ذلك أم لم يعلم.

ومن هنا ينبع ما نسميه مشكلات الدعوة. وهي

٧٤
تناف وت في السوء والخطورة، حسب سوء نتائجها وآثارها. فأخطرها تلك التي تأتي بنقيض ما يتوخاه الداعي من سعيه وعمله، أي تزيد الناس بعداً عن الإسلام وضيقاً به، إذ تثير في نفوسهم صوراً وأخيلة باطلة عنه، فيحكمون عليه من خلال تلك الصور التي نبتت في أذهانهم، من أخطاء أولئك الدعاة!

والحقيقة أن هذه المشكلات كثيرة متنوعة، ولكننا لا نستطيع في هذه الجائحة أن نستقصيها بالبحث والمعالجة. فلاكتف عن ذلك كله، بأهمها وأخطرها، وهي مشكلات ثلاث سأعالجها مرتبة حسب تفاوتها في الأهمية والخطورة.

* * *

٧٥
المشكلة الأولى = مسألة تكفير الناس :

هذه من أهم المشكلات التي تنبع عن الغيظ النفسى لدى من لم يضبط نفسه بقواعد العلم وأحكام الكتاب والسنة.

فلنبدأ قبل كل شيء بيان القاعدة التي التقى عليها سلف هذه الأمة وأئمة المسلمين جميعاً، ماعدا الخوارج الذين تم الإجماع على تلبسهم بالشذوذ والخروج على ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة، وهي القاعدة التي يمكن تصنيف الناس على أساسها بين الإسلام والكافر.

إن التصرفات المكفرة، على تنوّعها وكثرة، لا تخرج عن الأنواع الثلاثة التالية :

النوع الأول: الاعتقادات. وتتمثل في أن ينكر الإنسان شيئاً من أركان الإيمان أو الإسلام، أو يحلل حراماً أو يحرم حالاً مما هو معروف من الدين بالبداهة والضرورة.

كالذي ينكر وحدانية الله، أو البعث والنشور، أو الجنة والنار، أو وجب الصلاة مثلاً، أو الصيام أو الزكاة أو الحج .. أو ينكر حرمة الزنى أو الريا بصورة
مطلقة عامة.. الخ.

النوع الثاني الأفعال. وضابط الأفعال المكفرة أن تكون ذات دلالة على شيء يتناقض مع ركن ما من أركان الإيمان. كالسجود لسم، وكوضع الصليب في العنق، أو تقبله، وكالتربي بالأزياء التي تخص رجال الأديان الأخرى، أي التي لها دلالة دينية. فإن هذه الأعمال لها دلالة واضحة، لا تقل عن دلالة النطق. ومداولها في المثال الأول الاعتقاد بألوهية الصنم الذي سجد له، والاعتقاد بصلب سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في المثال الثاني. وهكذا...

ثم إن هذه الأعمال مكفرة بمجرد فعل الإنسان لها بمحض إرادته واختياره، سواء أكانت مدخلاتها قائمة في ذهنه أم لا.

النوع الثالث ما يدخل في نطاق السخرية أو التحقيق. وضابط ذلك أن يسخر من تلك المبادئ أو الأحكام التي يكفر الإنسان بإنكارها. كأن يسخر من الصلاة أو الحج أو الجنة أو النار، أو كان يسخر أو يزدي بالقرآن أو بأحد من الرسل أو الأنباء، أو الفقه الإسلامي عموماً، أو يتهم شيئاً من الشعائر البارزة.
للإسلام، كالأذان والمساجد، والأذكار.. الخ (1)

إذا لم يتلبس الإنسان بشيء من هذه الأنواع الثلاثة من التصرفات فهو مسلم لا يجوز تكفيره. وكذلك إذا كنت في شك من وقوعه في واحد من هذه الأشياء، فإن الأصل براءته منه، ولا يجوز الحكم برده وخروجه عن الإسلام إلا استنادًا إلى دليل يقيني في ذلك.

فلنتخذ هذه القاعدة ولنطبقها على المشكلة القائمة اليوم والتي يدور حولها حديث كثير من الناس الذين يهمهم أمر الدعوة الإسلامية، ألا وهي مشكلة من لم يحكم بما أنزل الله، هل يعد كافراً بموجب هذه القاعدة التي أوضحناها أم لا؟

ولكي تكون إجابتنا واضحة مفيدة، لا بد أن نساءل عن معنى الحكم بغير ما أنزل الله، فما معناه؟ معناه: إبرام الأمر وتحريره على خلاف ما شرع الله عز وجل. سواء تم هذا الإبرام من الإنسان في حق نفسه أو في حق أهله وأولاده أو في حق أصدقائه

(1) هذه القاعدة الكلية تنطوي عن تتبع الجزيئات. ولكن إذا أردت الوقوف على الجزيئات والتفاصيل الكبيرة فارجع إلى كتاب الإعلام بقواعده الإسلام لابن حجر الهيثمي رحمه الله.
وأصحابه، أو في حق أمه ومجتمعه.

فالذي يقضي بخروج زوجته أو ابنه البالغة سافرة غير محتمشة بستر الإسلام. يحكم بغير ما أنزل الله، والذي يقضي بإقامة منكر من المنكرات في داره يحكم بغير ما أنزل الله، وأعضاء الجمعية السكنية الذين يقررون التعامل بالربا لمشروعاً سكنياً يحكمون بغير ما أنزل الله، والقاضي الذي يقضي في مسألة بغير ما أمر الله به يحكم بغير ما أنزل الله. والحاكم الذي يصدق ما أبمه هذا القاضي، يحكم بغير ما أنزل الله.

كل هؤلاء الناس، وأمثالهم من لم نظل في ذكر أمثالهم، يحكمون بغير ما أنزل الله، ولن تجد أي موجب للتفريق بين بعض وآخر.

فلنعد الآن إلى سؤالنا: هل يدخل هؤلاء الناس بموجب تصرفاتهم هذه في دائرة الوردة والكفر، ويخرجون عن رقية الإسلام؟

الجواب أن هذه التصرفات بحد ذاتها ليست داخلة في النوع الأول من المكفرات وهو الاعتقادات. بل هو لا يبدو أن يكون أقوالاً وأفعالاً.

وهي لا تدخل أيضاً في النوع الثاني، ولا في النوع الثالث من المكفرات. كما هو واضح لدى المقارنة.
إذن، فإذا نظرنا إلى أنوا عدل الله، برهان قطعى على الإنكار والجحد الاعتقادي، أو على السخرية والازدراء، وكان الحكم متعلقاً بشيء من أركان الإسلام الخمسة أو بما هو مجمع عليه ومعروف من الدين بالبداهة والضرورة — فإن ذلك يكون مكتراً، ويكفر صاحب هذا الفعل أو التصرف، أياً كان.

أما إذا لم تقترب بتصرفاتهم براهين قاطعة على شيء ما ذكرنا، فإن الأمر يحتمل عندئذ أن يكون مدفوعاً إليه بدافع التهان، أو الانسياق وراء الأهواء والأماني النفسية، لا بدافع الجحد والإنكار. وإذا فالم احتال سقط الاستدلال، ولم يجز الحكم بالتكفير.

هذه خلاصة الجواب.

وعلى هذا، يتبع لنا أنه لا يجوز تكفر أحد من المسلمين الذين نرأهم يبرمون أمورهم أو أمور الناس على غير ما تقضيه شريعة الله، لمجرد تلبسهم بذلك، سواء أكانوا يفعلون ذلك تحت قوس القضاء أو في بيوتهم وبين أهليهم، أو في أنظمتهم وأحوالهم الاجتماعية الضيقة.

ويمسك أولئك الذين يستمررون الحكم بتكفير.
الناس، بقوله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. الآيات (68-94 و960)

فأعلم أن هذه الآيات الثلاث نزلت باتفاق المجتدين.

وأئمة الحديث في حق يهود تجاجموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إقامة حد الزنى على امرأة زنت، أو في حق يهود جَلِّدُوا، حيث كان يجب الرجم، فاستحلف أحدهم: أهذا هو حكم الله فيما تعلمنا؟ فأقر بأن اليهود غيروا وبدلوا ... روى ذلك على النحو الثاني مسلم في صحيحه، وأحمد، وأبو داود، وابن جرير، كلهم عن البراء بن عازب. ورواه على النحو الأول مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأبو داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، والهري مرسلاً، وغيرهم.

ثم إن العلماء اختلفوا في قوله تعالى في آخر الآيات الثلاث: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، الظالمون، الفاسقون. هل المقصود به اليهود الذين أنزلت الآيات في حقهم، أم المقصود به الناس جميعاً ممن يدخلون في عموم الوصف والمناط؟

81
رد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الاتهالين:

أن يكون المقصود به عموم الناس لا خصوص اليهود، وصرف عندئذ وصف الكفر إلى من لم يحكم بما أنزل الله جحوذاً، ووصف الظالم والفسق إلى من أقر به ولكنه تركه تهاونا أو لهوى في النفس.

وأن يكون المقصود به اليهود دون غيرهم، وصرت عندئذ يكون كل من وصف الكفر والظلم والفاسق خاصا بمن نزلت الآية في حقهم ومتضمنا للقاسم المشترك الذي هو معنى الكفر. ثم اختار، بعد هذا الترديد أن المراد بهذه الأوصاف الثلاثة أهل الكتاب الذين نزلت الآيات في حقهم، أو من لم يحكم بما أنزل الله جحوداً به وإنكارا له من سائر الكافرين.

روى ذلك ابن جرير وغيره عن علي بن طلحة عن ابن عباس.

وروى عن ابن عباس أيضاً، وجابر بن زيد وابن شبرمة والشعبي، أن الوصف بالكافرين في الآية الأولى ينصرف إلى المسلمين، والوصف بالظالمين في الثانية ينصرف إلى اليهود، والوصف بالفسقين في الثالثة ينصرف إلى النصارى. قالوا ووصف المسلمين هنا بالكفر ليس
بكرك ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر (1)، إلا أن يحكم بغير ما أنزل الله جحوذاً به، فهو عندئذ الكفر الحقيقي الذي هو الردة.
فإذا تأملت فيما نقلناه، من أقوال الأئمة في المقصود بهذه الجمل الثلاث المتكررة (وهو خاصية كل ما قد قاله العلماء في ذلك) علمت أنهم جميعًا متفقون على أن المسلم لا يجوز أن يحكم بكره بمجرد حكمه بغير ما أنزل الله. سواء ذهبنا إلى أن هذه الجمل الثلاث خاصة بمن نزلت الآيات في حقهم، أو عامة لسائر الناس. وإنما مناط الكفر هنا على كل حال الحجود والإنكار، كما قد رأيت.
لم يخالف في هذا القدر المتفق عليه إلا فئة واحدة، هي فئة الخوارج الذين انفردوا وشذوا عن الإجماع بتكفير المسلمين بارتكاب كبار الذنوب.
وعلى هذا، فإن الإعرار عما أجمع عليه السلف من أئمة المسلمين بدأ بعصر الصحابة، ففمن دونهم، ثم من دونهم، في تفسير هذه الآيات الثلاث، واتخاذ تفسير جديد لها، يقضي بأن كل من لم يحكم بما أنزل الله، فهو كافر مطلقًا - جنوح عن واجب الالتزام.

(1) أي هو الكفر بمعنى جحوذ النعمة.
بالقواعد المعروفة والمقترح عليها في تفسير القرآن، ولن تجد له من مسوَّغ إلا تحكيم الأهواء في كتاب الله عز وجل.

إذا تبين هذا، فإننا ننظر في حال من قضي في أمر غير شرع الله جل جلاله، فإن ظهرت لنا من قوله أو حاله دلائل قاطعة على جهوده بشرع الله عز وجل، أو على احتماله له، وكان الحكم متعلقاً بواحد من أركان الإسلام أو مما عرف من الدين بالضرورة. فإن ذلك يعد مكفرأ، ويكفر المتلبي بذلك الفعل، سواء كان والداً في أهله، أو عضواً في جمعيته، أو عاصباً في حق نفسه، أو قاضياً في محكمته، أو حاكماً في دولته. دون أي تفريق.

أما وإن لم تظهر لنا دلائل قاطعة على جهوده أو تحققه، أو كان الأمر متعلقاً بحكم غير معروف من الدين بالضرورة، فإن كان قابلاً لللاجتهد أو خفياً لا يعلمه إلا أصحاب الدراية والاختلاف، فإن مجرد تصرفه هذا لا يخولنا أن نحكم بأكثر من عصيانه وفسقه.

فليتق الله أولئك الذين يجازون في إقامتهم أنفسهم مقام الله عز وجل بتكفير كل من لم يحكم بما أنزل الله، دون رجوع إلى ضوابط ذلك من أدلته العلم.

84
وقاوعده ، وليتهموا أنفسهم بالانسباق وراء غيظ لا يحكمه منهج الإسلام وضوابطه ، ولا يقصد به وجه الله وحده .

ومن أوضح أداة هذا الاتهام ، أنهم لا يتصورون للحكم بغير ما أنزل الله إلا مدلولاً واحداً ، هو دون غيره محترم تكفيرهم ، ألا وهو أن يقضي الحاكم الأعلى في قومه أو شعبه ، فيتنكب في حكمه عن شرع الله عز وجل .

أما ما ينجرف فيه عامة الناس في بيوتهم ومع أهليهم أو أصدقائهم أو في مجتمعاتهم ، من المعصية ذاتها ، إذ يبرمون أمورهم أو أمور من يعفون عليهم على خلاف شرع الله عز وجل - فهؤلاء كلهم مبرأون عن جريمة الكفر والارتداد ولا يدخلون تحت طائفة الحكم بغير ما أنزل الله ! ..

لماذا ؟ .. وكيف أثبت هذا الفرق ؟ .. لا ندري .

وإنني لأذكر عهوداً مرت على هذه البلدة ، تربع فيها على كرسي الحكم ، ووزارة العدل ، رجال لا نزال نشهد لهم بالدين والإسلام ، ويشهد لهم قبليا ، هؤلاء المكفرؤن أنفسهم ، وكانت أقضائهم وأحكامهم هي هي ، كلئتي كانت من قبل ، والتي استمرت فيما بعد ، أحكاماً
بغير ما أنزل الله، في أكثر المسائل والأمور: فهلاً حكموا بكافرهم وارتدادهم كحكمهم في حق الذين كانوا قبلهم أو الذين جاؤوا عن بعدهم؟ وأي فرق من النقص هنا والفضل هناك، حتى يفهم بالكفر هذا دون ذلك؟

إذا كان المحكم في الأمر هو شريعة الإسلام، وكان رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة لنا في الأمر، فإليك خلاصة هديه ﷺ في هذه المسألة:

روى الشيخان عن عبادة بن الصامت أنه قال: دعنا النبي ﷺ علينا، فبايعنا، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرنا علينا وأن لا نناع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحنا عندكم من الله فيه برها.

وروى مسلم وأحمد واين ماجه وأبو داو. عن أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصادحا الحركات من جهينة، فأدركنا رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعته، فوقع في نفسه من ذلك. فذكرته للنبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: أت أهل إله إلا الله وقتلته؟ قال قلت يا رسول الله: إنما قاها خوفا من السلاح، قال: أفلا شققت على قلبه حتى تعلم.
أقالها أم لا؟ فا زال يكررها، حتى تمنيت أني أسلمت

يومئذ.

وصبح عنه أن الله كان قد أعلم بهنفاق المنافقين المتظاهرين بالإسلام بين أصحابه، ومع ذلك فقد كان يأبى إلا أن يعاملهم معاملة المسلمين، ويخذهم بظاهر أحوالهم.

وقد طلب منه عمر بن الخطاب أن يأذن له بقتل عبد الله بن أبي بن سلول فلم يأذن له. وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يستذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه، لم بدر منه من مظاهر النفاق في غزوة المريسيع، فأبى صلى الله عليه وسلم وقال له: بل تفرق به ونحن صحبته. هذا كله في حق من أعلم بهنفاقه بطيئاتهم ودخائل نفوسهم، فكيف بمن لا سبيل لنا إلى إخراط قلوبهم ومعرفة ما استنكن فيها مما قد يخالف ظاهرهم؟

وكان صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه إذا حكموا أن يحكموا بما ظهر لهم وأن يكلموا بواطن الأمور إلى الله عز وجل.

هذا كله إلى جانب ما رواه مسلم وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا كفر الرجل أخاه، فقد باء بها أحدهما.

وقد أطال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه

87
الأم ، في بيان هذا الواجب الذي الزم الله به عباده أن يتعاملوا فيما بينهم على أساسه في الحياة الدنيا ، وإليك خلاصة ما قاله في ذلك.

"... إن الله فرض على خلقه طاعته نباههم ، ولم يجعل لهم بعد من الأمر شيئاً . وأولى أن لا يتعاطوا حكماً على غيب أحد ، لا بدلالة ولا ظن ، لتقصر علمهم عن علم أنبيائهم الذين فرض الله تعالى عليهم الوقف عما ورد عليهم ، حتى يأتيهم أمره . فإنه جل وعز ظاهر عليهم الحجج فيما جعل إليهم من الحكم في الدنيا ، بأن لا يحكموا إلا بما ظهر من المحكوم عليه ، وأن لا يجاوزوا أحسن ظاهره ، ففرض الله على نبيه أن يقاتل أهل الأوثان ، حتى يسلموا ، وأن يحقق دماءهم إذا أظهروا الإسلام ، ثم بين الله ثم رسوله أنه لا يعلم سرائرهم في صداقهم بالإسلام إلا الله ... أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عطاء بن زيد الليثي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار ، أن رجلاً سار النبي صلى الله عليه وسلم ندر ما ساره حتى جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو يشاعر في قتل رجل من المنافرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أليس يصوم؟ قال بلى ولا صلاة له . فقال أمين أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك الذين نهاني الله تعالى عنهم . . " ثم قال :

88
وَبَذَاذَكَّ مُضْتَ أَحْكَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيما بَيْنِ الْعَبَادٍ مِنَ الْحُدُودِ وَجَمِيعِ الْحَقْوَاتِ، وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ عَلَى مَا يُظْهَرُونَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَدْيِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالسَّرَّاءُ. فَقَنَ حَكِيمَ عَلَى الْنَّاسِ بِخَلافِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ، أَسْتَدَلَّاهَا عَلَى أَنَّ مَا أَطْهَرَوا، يَحْتُمَّ غَيرِ مَا أَطْهَرَوا، بِدَلَّةٍ مِنْهُمْ أَوْ غَيرِ دَلَّةٍ، لَمْ يَسْلَمَ عَنْدَى مِنْ مَخَالِفَةِ التَّنَزِّلِ وَالْسَّنَةِ (١).

وَهَذَا الَّذِي أَطْلَ الْشَافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَاهِهِ، هُوَ الَّذِي تَلَقَّى عَلَى إِجْمَاعِ جَمِيعِ الأَئِمَةِ وَأَهلِ الْمَلَّةِ فِيما نَعْلَمُ، لَمْ يَشْتَغِلَ عَنْهُ إِلَّا الْخَوَارِجِ. فَلِيَتَقَ اللَّهُ مِنْ يَخَالِفِ الْيَوْمِ بِيَنَادِىِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ إِجْمَاعَ أَئِمَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِيَنْسَاقُ وَرَاءِ هُوَاهُ فِي تَكْفِيرِ مِنْ يَحْلُو لِهِ تَكْفِيرَهُ مِنْ ظَاهَرِهِمْ الإِلَامَ وَالْإِلْنِيِّ: لِدِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

مُشَكَّلَةُ الْثَانِيَةِ: مَسَأَلَةُ دَارِ الْكَفْرِ وَدَارِ الإِلَامِ: وَهِيْ أَيْضًا تَنْبَثِقُ عَنَ السُّبْبِ ذَاتِهِ. سَبِبُ الْجَهِلِ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الإِلَامِيَّةِ، ثُمَّ تَرَاكُ الْنَّفْسُ عَلَى سَجْيَتِهَا،

(١) الأَمُّ: ١٦٨ و١٦٩.
في أن تتصور ما تشاء على النحو الذي تريد، ثم إطلاق الأحكام الخطيرة باسم الإسلام وشرعه، على بلاد الله عز وجل والحكم على أكثرها أو جميعها بأنها دور كفر وحراب!...
فما هي حقيقة الحكم الشرعي في هذه المسألة؟ يجب أن تعلم قبل كل شيء السبب الذي دعا أئمة الشريعة الإسلامية إلى تصنيف البلاد كلها إلى قسمين أو ثلاثة أقسام.
إن السبب في ذلك هو الحاجة إلى وضع مقياس، يبين المسلمين على أساس الفرق بين البلاد التي يشرع قتال أهلها ولا تجوز الإقامة فيها في أعم الأحوال، والبلاد التي يجب الدفاع عنها وقتل من يريد اقتحامها بأي أذى أو سوء.
فكان أن استخرجوا من أوامر الله عز وجل في كتابه، ومن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما صبح من سنته، هお互いين، لا تخرج بلاد الله عز وجل عن أن تمتاز بواحدة منهما:
الهوية الأولى: دار الإسلام.
الهوية الثانية: دار الكفر.
وهذه الثانية إما أن يقوم بينها وبين المسلمين موجب
من موجبات القتال، فتسمى عندئذ دار الحرب. وإما أن يقوم بينها وبين المسلمين موجب من موجبات السلام، فتسمى دار الأمان.

وإما يتعلق حديثنا في هذا البحث بدار الإسلام. ما هي؟ وكيف أصبحت دار إسلام؟ وهل يمكن أن تعود دار الإسلام، لسبب ما (في حكم الشريعة الإسلامية) إلى دار كفر؟

تلتقي كلمة أئمة المذاهب الأربعة على أن البلدة تصبح دار إسلام إذا دخلت في منعة المسلمين وسياستهم، بحيث يقررون على إظهار إسلامهم، والانتماع من أعدائهم. فإذا تحقق فيها هذه الصفة بسبب الفتح عنوة أو صلحًا أو نحو ذلك. أصبحت دار إسلام، وسرت عليها أحكامها من وجوه الدفاع عنها والقتال دونها، والهجرة إليها، ثم إن هذه الهوية لا تنفك عنها، وإن استولى الأعداء بعد ذلك عليها، فيجب على المسلمين بذل كل ما يملكونه من جهد للدفاع عنها وطرد الأعداء منها. وإقامة أحكام الله فيها.

يقول ابن حجر في كتابه تهفة المحتاج نقلاً عن

(1) أنظر تهفة المحتاج بشرح النهاج: 269 والبه项目经理

على شرح منهج الطلاب 4277 و278.

91
الرافيع وغيره من فقهاء الشافعية: "إن دار الإسلام ثلاثة أقسام، قسم يسكنه المسلمين، وقسم فتحوه وأقرروه عليه بجزيرة ملكوه أولاً، وقسم كانوا يسكنونه، ثم غلب عليه الكفار، قال الرافعي: وعدهم القسم الثاني منها، يبين أنه يكفي في كونها دار إسلام، كونها تحت استيلاء الإمام وإن لم يكن فيها مسلم" (1).

ووهذا ما يقرره سائر المذاهب الأخرى: الحنابلة، والمالكية، والحنفية، كلهم ذهبوا إلى أن المعوَّل في تسمية الأرض بدار الإسلام، أن يمتلك المسلمون فيها السيادة لأنفسهم، بحيث يملك المسلم أن يستعن فيها بأحكام الإسلام وشعائره (2). ثم إن هذه السمة لا تنحصر عنها بعد ذلك لأي عارض من عدوان وضعف ونحوه. اللهم إلا جمهموماً من أتباع الإمام أبي حنيفة، فقد ذهبوا إلى أن دار الإسلام يمكن أن تتعدد دار حرب بشروط ثلاثة: أحدها إجراء أحكام الكفر وقتله فيها، الثاني أن تكون مثاومة لدار الكفر والهرب، الثالث أن يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمناً بالأمان الأول على نفسه. فإذا ظهرت هذه الأمور الثلاثة مجتمعة،

(1) تهفة المحتاج : 269/9
عادت دار الإسلام بموجب ذلك - عند كثير من الحنفية - إلى دار حرب (1).

إذا تأملت في هذا الذي اتفق عليه أئمة المسلمين من معنى دار الإسلام، أدركت أن تطبيق علوم الأحكام الشرعية واجب يترتب على أولئك الذين تضمنهم دار الإسلام، وليس شرطاً لا بد منه لتسمية الأرض دار الإسلام!

وانظر إلى بعد ما بين التصورين، وإلى أثر الجهل في الخلط الذي من شأنه أن يعكس الأمور وأن يأتي بنقيض الأهداف المطلوبة.

وأن أمر الجهل أيضاً يهون، لو كانت المشكلة مشكلة جهل فقط. إذن لامكن أن تزول المشكلة كلها عن طريق العلم.

ولكن الذي هو أخطر من الجهل، عصبية تتحكم بمجامع النفس، يجعل منها صاحبها غذاة لأنانيته وأفكاره الشخصية، فلا يفيد شيء من العلم وبراهينه معها بحال.

(1) انظر الدرس المختار بشرح تنوير الأ بصار وحاشية ابن عابدين عليه ٣٦٠/٣ هذا وإذا أردت الوقوف على تفصيل الكلام في هذه المسألة فارجع إلى كتاب آثار الحرب في الفقه الإسلامي للاستاذ الدكتور وهمة الزجيلي: ص ١٦٧ فا بعد.
لا يزال بعض المسلمين، فمنهم أمر المسلمين، يصرّون على أن يحترموا عن كل ما قد ذكره الآية واتفقوا عليه، في معنى "دار الإسلام" ويلحون على أن يضعوا للكلمة تعريفاً آخر يتلقى مع مبادئهم وأهوائهم.

وهو أن دار الإسلام هي التي يكون المجتمع فيها مجتمعاً إسلامياً، ويجاور جميع ما يطبق فيها من الأحكام مأخوذًا من كتاب الله وسنة رسوله. فإن لم يتم فيها ذلك كله، كما هي الحال اليوم في معظم بل ربيما في كل البلاد الإسلامية، فهي دار حرب!... هي دار حرب، وإن خالف ذلك إجماع أئمة المسلمين كلهم، ولم يجدوا من يؤيدهم إلا الخوارج الذين انفردوا بالذهاب إلى أن البلدة التي تقع فيها كبار الذنوب تحول من دار إسلام إلى دار حرب!...

ففي سبيل أي مصلحة من مصالح الإسلام أو الدعوة الإسلامية، يلحون على هذا الشذوذ عن خط السلف الصالح وأئمة المسلمين؟

أيما أدعى إلى القيام بواجب هذا الدين في أعقابنا؟... إن تقول: إن هذه البلاد قد أصبحت ديار حرب، فنستريح عندئذ عن كل مسؤولية، ولا نحمل أنفسنا واجب القيام باسترداد أرض، ولا برّدٍ عدو، ولا بالنهوض بواجب حسبة أي أمر معروف أو نهي عن
منكر، ولا يتجميع الناس إلى جمعة أو جماعة، أو مشورة لأمر الإسلام والمسلمين - أم أن نقول (كما أجمع السلف) إن هذه البلاد لا تزال ديار إسلام، لأنها قد دخلت ذات يوم تحت سيادة المسلمين وسلطانهم، فلن تعود عنها هذه السمة إلى يوم القيامة، فهي إذن أمانة الأجيال في أعقابنا، وإن علينا إذن، أن نسترد ما استلبه العدو منها كفلسطيني وغيرها، وأن نحرر ما وقع منها تحت سلطان المستعمرين والمسلمين، وأن نسعى جميعاً سعنا نندد رواج الحكم الإسلامي عليها، ولتفيق المجتمع الإسلامي فيها؟

على أن الحكم بتحول هذه الديار الإسلامية إلى ديار كفر أو حرب، يستوجب من القائلين بذلك. أن يرحلوا عنها، ويبناوا إليها حيث يطلب لهم أن يسموه دار إسلام. فإلى أين يهجرون؟ وأين هي تلك الدار التي تسمى اليوم دار إسلام في نظرهم؟ وهل يمكن العثور عليها في بعض نواحي أوروبا أو بعض الجهات أمريكيا؟

ثم ما هي مصلحة الدعوة الإسلامية، في أ. نشغل أذهان شباب المسلمين بهذه المسألة، وأن نحشو أفكارهم بيقين أن معظم ديار المسلمين اليوم ديار حرب وكفر؟ ما الذي يحدث من مكاسب الدعوة الإسلامية والنصر الإسلامي إن هم تبنوا هذا الشذوذ، وقبلوا أن يكونوا

95
ورثة للخوارج في ذلك؟ وما الذي يفوتهم من تلك المكبس والثرات، إن هم استقاموا على اليقين الذي استقام عليه أجيال المسلمين إلى يومنا هذا، وأيقنوا أن كل أرض شرفها الله بالفتح الإسلامي، لن يرتد عنها هذا الشرف إلى يوم القيامة، وأن واجب الأجيال المسلمة حراستها والذود عنها وإشادة بنيان المجتمع الإسلامي فوقها؟

خطيئةً، ربما وقع فيها أحدهم، إذ ظن أن كلمة "دار الإسلام" عنوان على المجتمع الإسلامي الذي يرقى إلى درجة القدوة والتأسي، وإن الفقهاء إذا قصدوا بالكلمة هذا المعنى، فقرر، بناءً على هذا الوهم، إن بلادنا اليوم ليست على هذا المستوى ولا قربية منه، فهي إذن دور كفر وليست دور إسلام!...

ولو علم هذا المتورم أنها ليست أكثر من شارة أو طابع تميز به الأراضي والبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين يوماً ما، وملكوا فيها السيادة على أنفسهم ووظائفهم الدينية، لكي ينهضوا بواجب حراستها مع الزمن، ولكي يقوموا بخدمة الإسلام والمسلمين فيها - إذن، لما عرّج على هذه الكلمة بأي مناسبة، وما أقسم نفسه وأقسم الناس في تخطيط لا حاجة إليه ولا جدوى منه.
ولكن ما بال الذين أتيح لهم أن يعرفوا الحقيقة,
لا يعودون إليها؟ وما بالهم يابون إلا أن يجعلوا من تلك
الخطيئة أول مبدأ من مبادئ الإسلام، تحتي به أذهان
الناشئة وعقولهم؟
ما أكثر ما سألني صغار، في مناسبات شتى، عن
أرض الإسلام وأرض الكفر، وهل هم يعيشون الآن
على الأولى منها أم الثانية؟، وقد أرهقت المسألة أذهانهم
وابلت قلوبهم!... وقد كان الأخرى أن يشغلو
أنفسهم بدلاً عن ذلك، بتجويد تلاوة القرآن، ومعرفة
شيء من أحكام الحلال والحرام وكيفية أداء العبادات.
إن الناشئة اليوم، لا يحتاجون، في مجال التوجيه
والدعوة إلى التحلي بالإسلام، إلى أكثر من تبصيرهم
بحقائق الإسلام الاعتقادية المنطق والبرهان، وأخذهم
بعد ذلك بأسباب السلوك والاستقامة على المنهج الإسلامي
السليم، وذلك باتباع سبيل الذي ذكرناه.
وكل ما تحشي به أدغمتهم وراء ذلك، من موجبات
الحقد والأذان، أو من أحكام التكفير للناس، أو
من هذا الحديث الذي لا طائل فيه عن دار الكفر ودار
الإسلام - أقول: كل ذلك من اللغو الباطل الذي لا
يفيدهم قرباً إلى الله، ولا يغنين بثقة أو علم، فضلاً
عن أنه يفقدهم إشراقات قلوبهم، ويملوها بالكدورة

97
وعكر الجدل والمناقشات التي لا طائل من قدرها، ويقتل أوقاتهم الثمينة دون ربح أو فائدة، ثم ما أن يسر
ـ إذا كان هذا هو وحده زادهم في طريق تقوى الله
والتثبت على الحق ـ أن يردوا على أعقابهم ويعودوا
إلى ماضي إنحرافاتهم وأودية ضياعهم، عند أقل لفتة أو
محتة.

واليستعنان أن يصرنا بالحق ويهدينا إليه،
ويرزقنا الإخلاص لوجهه.

***

 المشكلة الثالثة: سياسة المسلم مع أهله وأسرته.
وتشا هذه المشكلة عندما تفتتح أسباب الهدية
في قلب أحد أفراد الأسرة ممن لا سلطان له عليهم
كالأولاد مثلاً، ويشق سبيله إلى الله عز وجل في طمأنينة
وعلى بصيرة وعلم، ولكن سائر أفراد أسرته أو أكثرهم
يسرون على نقيض خطه ومنهجه. فكيف يتعامل معهم؟
وكيف يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى فيما بينهم؟
وهل له أن يقاطعهم لما يراهم عليه من أسباب الفسق
ومظاهر الله والعصيان؟

لقد عالجت جانباً من هذه المشكلة في رسالة «الإسلام
ومشكلات الشباب» ولكن يبدو أن المشكلة لا تزال

98
قائمة ولا يزال كثير من الشباب المسلمين يسألون عن السبيل إلى حلها أو الاستعلاء عليها.
وأحصوا علاج هذا الأمر، مرة ثانية، بالقدر الذي تسمح به طبيعة هذه الرسائل من التفصيل والإيضاح.
إن هذا الشاب الذي يعاني من مشكلة التوفيق بين سلمه الديني وواجباته الإسلامية، ومعاملته الكرية اللائقة لأعضاء أسرته المنحرفين عن جادة الهداية والحق - يجب أن يراعي في اتباع السياسة الشرعية مع أهله، نوع العلاقة القائمة بينه وبينهم.
وهي تقسم إلى نوعين اثنين:
أحدهما علاقة الأولاد بالآباء والأمهات، والثاني علاقة الأنداد، من الأقارب، ببعضهم البعض، كالأخوة والأخوات وأولاد العمومة والخوولة، الخ.
فأما المشكلة التي تعود إلى النوع الأول. فإن على الشاب المسلم أن يسلك إلى حلها الطريق التالي:
أولاً - عليه بمجرد أن استشعر نور الهداية الإلهية في قلبه، وأن شغف نفسه حب التقيد بالسلوك الإسلامي الذي أمر به الله عز وجل، أن يضاعف من يرثه بأيديه، وأن يزداد تفانيًا في خدمتهما، ورعايتهما، والسهر على تحقيق رضا كل منهما عنه، مهما كانا
منحرفين وتأهلاً، ومهمًا كانت عقائدهما أو أفكارها
جانحة عن ميزان الحق.

وأنا أقصد بهذا الكلام أن عليه ألا يقف عند حدود
الواجبات التي كلفه الله بها في نطاق البر والإحسان إلى
الأبوين. فالوقوف عند تلك الحدود، شأن من لا يعاني
من مشكلة، ومن لم يضع نفسه موضوع الداعي إلى الله
عز وجل. أمًا والحالة هذه، فلا بد أن يتجاوز هذه
الحدود إلى كل ما يتاني منه من مظاهر الخدمة والبر
والرعاية، لأنه صاحب مهمة يريد أن يحققها، ولأنه
يعاني من مشكلة يريد أن يحلـها.

ثانياً - ليس له أن يذهب في خدمتهما والبر الشديد
بهما، مذهباً يجعله يقيم معهما على معصية، يتغاضى
عنها، برأٍ بهما فيما يتصور.

كما أنه ليس له أن يحبس نفسه - برآهما فيما
يتصور - عن القيام بوفيزمة من وظائف الإسلام التي
كلفها الله بها على سبيل الحتم والواجب.
فإذا رأى، وهو جالس مع أبوه، أن معصية قد
وقعت في المجلس، فإنه لا يملك، والحالة هذه
إلا أحد أمرين، لا ثالث لهما: أن يذكرهما بثقوب
الله عز وجل، وموقفهما غداً بين يديه، والذابـ
الذي قد يسوَّان به بسبب هذا العصيان، فلا يزال يذكر ويحذر وينهي بالحكمة والرفق.. حتى يبعث الله في قلبهما التأثر من كلامته، فترفع المعصية ويزال المنكر.. أو أن ينضف فيفارق المجلس، بكل رقة ولباقة.. بعد أن لا يجدي سعه الأول شيءًا.

وعلى كل.. فليس للمسلم.. سواء عليه أذكر وحذر، أم قام ففارق المجلس.. أن يغلف في القول، أو أن يبعث النصيحة لأبوريه من منبر التواصل والتعليم، أو أن يتحدث شعورهما بأي تصرف ناب عن أصمي ما قد كلفنا الله به من اتباع الخلق النبيل باناس كلهم، فضلاً عن الأبوين.

ولكن رائدك في هذا، قول الله عز وجل: "وإن نجدها.. على أن تشرك به ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معرفة" ..

ثالثاً - لا تشرع القطيعة عن الأبوين بأي حال، مهما بلغ من عصيانهما، ومهم بلغ الولد في تقواه واستقامته، فإن في عنق الولد لأبوريه حقاً، لا يقطعه كفر ولا عصيان، ولا يجوز الاستهانة به، فضلاً عن تضييعه بحال من الأحوال.

إلا شكا. أنه لا يقدر أن يوفق بين وظائفه الدينية.

101
تجاه ربه جل جلاله، ووظائف الأخري تجاه أبوه.
لما يقع فيه من الحرج والتشاكس، فإني أقول: إنك
إن ضاعفت من برك بهما، وازدت تفاني في خدمتهما،
وضحيت ببعض وقتك وراحتك ودنياك، في سبيل
القيام بهذا الأمر على خير وجه، فإنك لن تقع- على
الأرجح- في أي حرج أو تشاكس. بل أن الأمر
سيتحول لصالحك شيئاً فشيئاً، وستجد أنهما يسعبان
في تحقيق رغباتك، وتسير السبيل إلى واجباتك الدينية،
ولسوف يقدران شعورك الديني، على أقل تقدير،
فلا يخالسانك إلا على حال تتفق والتزاماتك الدينية
تجاه مولاك.
ولكن التشاكس قد يظهر، عندما يغفل الولد عن
القيام بهذا المبدأ الهام، تجاه أبوه، ويبني من سلوكه
الديني أمام أبوه شخصية متعلقة متساوية عليهما.
وهذا العمل ينم عن جاهلية كبرى، وعن تقصير
هذا الشاب بهذا السلوك، في جنب خالقه ومولاه،
قبل أن يكون تقصيرًا في جنب أبوه.
وأما المشكلة التي تعود إلى النوع الثاني، أي عندما
تكون المشكلة ناتجة من علاقات أنداد من الأقارب
بعضهم مع بعض كالأخوة ونحوهم، فيجب لحلها
اتباع السبل التالية:

102
أولاً - لا بد للشاب المسلم الذي يجد نفسه محفوفًا
بحواس من الأقارب بعيدين عن الإسلام والالتزام
بأحكامه، من أن يتحلى، ولو بقسط، مما يجب أن
يتخلل به تجاه أبيه، من البر والرعاية والخدمة. فإن
في ذلك ما يجعل له منفذاً إلى قلوبهم، ولا شك في أن
التحلي بهذه الأخلاق سيكلفه شيئاً من التضحيات، وربما
كثيرًا من المصاعب في أول الأمر، ولكن فليعلم،
أن ذلك هو الجهاد العظيم الذي شرفه الله به، وأن له
على ذلك من الأجر والمثوبة عند الله عز وجل، ما
لا يحدده نصور، ولا يقع تحت حصر. وحسبه ألا
يشتغل من واجبات الدعوة إلى الله عز وجل إلا في
هذا الحقل وحده.

ثانيًا - عليه أن يكثر من زيارتهم، وأن يطلب مثل
ذلك منهم، كما يقول الإمام النووي في كتابه الروضة
في أول باب الجهاد، وكما يقول الغزالي في كتابه
الاحياء، على أن يجعل زيارته هذه ضمن إطار من
الرعاية والاهتمام بهم، قدر ما يسمح به حاله، وصاحب
البصيرة النافذة والذوق السليم، يعلم كيف يتنزف الفرص
للتعبير عن ذلك كله على أحسن ووجه.

ثم ليجعل الموضوع الرئيسي في حديثه إليهم،
كلما التقى بهم، موضوع إرشادهم ونصيحتهم ودعوتهم
إلى الله عز وجل، بروح من الشفقة والرحمة ومشاعر الحب لهم والغيرة عليهم. وليهيء منهج حديثه وأسلوب حجاجه ونقاشه، معهم، في وقت سابق، على أن يستعين بالله قبل كل شيء، فيضرع ويتبتل إليه أن يفتح مغاليق قلوبهم لكلامه، وأن يهمهم الهدية إلى الحق، وأن يقيهم من فتنة الوجب والرياء وبرزق الإخلاص لوجهه.

ثالثاً - فإذا كان المجلس الذي يلقاهم فيه، لا يخلو من المعاصي، كنساء سافرات، أو حديث فيما لا يرضي الله، أو لو غير مباح... مما لا يدخل في صنف الكبار، فليجعل كفارة جلوسه معهم عليها، إنكاره عليهم، ونصيحتهم في الإقلاع عنها، وتحذيرهم من سخط الله وعقابه فإنهم استجابوا في المجلس ذاته فذالك وان لم يستجيبوا، تأمل خيراً في لقاءات أخرى، وليحرص على ألا يكون قصده في مجالستهم إلا تذكيرهم بالحق ودعوتهم إلى الله.

حتى إذا استقر في قلبه ويقينه - من جراء التجارب والمحاولات الكبيرة - اليأس من انصبابهم للحق، قاطعهم، وأمسك عن زيارتهم، تنفيذاً لأمر الله عز وجل في ذلك: "وإذا ينسينك الشيطان، فلا تعبد بعد الذكرى مع القوم الظالمين". الانعام: 68.على أن تكون هذه
القطيعة خالصة لوجه الله عز وجل ليس فيها شيء من حظوظ النفس، ويظهر هذا القصد منك باتباع الآداب التالية:

1- لا تقطع رفдаك ومعوناتك عليهم على الرغم من القطيعة، بل عليك أن تنفذ إليهم بكل ما تبلغه طاقتك من رفد وعون، كلما احتاجوا إليه.

2- إذا صادفت واحدًا منهم في طريق أو مجلس أو محفل عام، فأقبل إليه بكل بشاشة وسرو، واسأله عن أحواله وحال من يلزمه به، فإذا أعرض هو عنك، فقلب أعراضه بعكس ذلك تمامًا.

3- لا تدخل في أحكام هذه المقاطعة الحالات الاستثنائية الطارئة كقيادة مريض، أو تشيع جنازة، أو مواساة بنكبة ونحو ذلك، على أن تذكرهم بالله كلما زرتهم في هذه المناسبات، وتثاؤهم بالحكم والرفق، عن المنكر الذي قد تراه عندهم.

رابعًا - على المسلم الداعي إلى الله أن يعلم أنه عندما يزور أقاربه وأرحامه، لا يزورهم لمحض شوق إليهم أو التسلية معهم، وإنما يؤدي بهذه الزيارات، وظيفة قداسية كلفه الله بها وأقامه عليها، أنها وظيفة الدعوة إلى الله، لا فيما بين رحمة وأهل قرابته.

105
وعلى هذا، فإن عليه أن يملأ الوقت الذي يمضي معهم، بالتذكير والنصح. وللذكر، ينعني معني خاص، يتعلق بالنهاي عن منكر يتلمسون به، أو يتعلق بالأمر بواجب أرضاً عن القيام به. وقد أوضحت هذا المعنى في البند الثالث.

أما المعنى العام، فهو أن يقوم فيهم مقام المرشد الناصح يذكرون بالله وصفاته وقدرته، وبيانه المعجز الذي يختطفهم به، والموت وما بعده من الأحداث التي هي اليوم غيب بعيد، وستكون غداً واقعاً مشاهداً لا مفر منه.

ويستحسن أن يربطهم في ذلك بما يشبه درساً، درياً، يركز فيه على تفسير كلام الله عز وجل، أو سيرة سيدنا رسول الله علیه السلام.

إلا لم يستحسن وضع منهج دوري في ذلك، خوفاً من عدم إقبالهم إليه والتزامهم به. فليجعل ذلك قراراً بينه وبين نفسه، يشغله به كلما زارهم أو زاروه. كل ذلك بأسلوب حكيم لا يعجز عنه ذو الحكمة السليمة في معالجة الأمور.

فإذا اتبع المسلم هذه السبل في معاملة أقربائه وذوي رحمه، وثبت على ذلك حيناً، وصبر على بعض الشدائد في سبيل مرضاه الله عز وجل، فإنه سيعود
ولا شك بإحدى الحسنين:
إما هداية من الله تنكسب في قلوب أقاربه أو بعضهم على أقل تقدير. وإما أجر كبير يعود به من الله عز وجل وإن لم يعُد من جهوده معهم بأي طائل.
وهذا الأمر ثابت لك على كل حال، إذا كان قصدك وجه الله وحده.
ومهما يكن، فاحرص أن تقف دائما تحت مظلة قوله تعالى:
" ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال إني من المسلمين. "
وأخيراً.. هكذا أفنّع إلى الإسلام

ندعو إليه بعد أن نتحلى به عقيدةً، وخلقًا، وسلوكًا، ولا ننسى أن نغذي أفغندنا خلال ذلك، بأسباب الرغبة في ثواب الله والرهبة من عقابه، والمراقبة الدائمة له.

ندعو إليه من منطلق الشفقة على عباد الله جميعًا، كي لا يقعوا غداً في آلام كاوية من الندماء التي لا تغنيهم شيئاً. فإن رب العالمين جل جلاله ما دعا عباده إلى دينه هذا، إلا رحمة بهم وحبًا لإسعادهم، فأولى بك وأنت جندي تدعو الناس بدعوته، ألا تدفعك إلى ذلك إلا الرحمة والشفقة والغيرة عليهم.

ندعو العقول عن طريق الحجة والبرهان، إلى اليقين بعقائد الإسلام، وندعو النفوس عن طريق منهج التزكية النفسية إلى الالتزام بسلوك الإسلام، ولكن ننجح في ذلك إلا بعد أن نبدأ فنركفي نحن نفوسنا من أوضارها وأمراضها جهد استطاعتنا.

١٠٨
نركل من طريق ما بيننا وبين الآخرين كل عصبيتنا وأنانيتنا ورغباتنا في الانتصار للذات، حتى تتاح الفرصة لهم أيضاً أن يفعلوا مثل ذلك فينحو عصبيتهم وأنانيتهم عن الطريق حتى تنفذ إليهم كلمة العلم والحق صافية سائغة.

لا نخلط بأعمال الدعوة شوائب المعلومات، وزوايا الشهوات والأهواء، ولا ننشغل بالناشئة بها، فإنها لا توقعهم إلا في رهقة لا جدوى منه، ولا تعود إليهم إلا ببلاب فكرية تورث الفتنة ولا تحقق الخير.

سلاح الداعي إلى الله أولاً: العلم بكتاب الله وسنة رسوله وما أجمع عليه سلف هذه الأمية. ثانياً: العاطفة الإسلامية التي غذت بالعلم وارتبطت بحدوده.

فمن حمل لواء الدعوة إلى الله بدفع من عاطفته وحدها لا يسلم من الوقوع في غواية أو إغواء. ومن حمل لواءها بدفع من علمه المجرد، لا يعدو أن يكون مفتيًا يضع أمام الناس قائمة أحكام الحلال والحرام. وتعليم الأحكام، يختلف عن الدعوة إلى الإسلام.

شعار العبد الذي أخلص في الدعوة إلى الله، هو قوله عز وجل: "فذكر، إما أنت مذكر، لست عليهم بصير" فهو يؤدي بعمله وظيفة كلفته الله بها.
أما هدایة الناس واستجابتهم له فشيء مناطه الإرادة الربانية التي يتم على أساسها تدبير الأمور.

وسلاح القائم بدعوة الله، كثير ذكر ودعاء، وتضرع وبكاء، و كثير استغفار في الأسحار، وتلاوة للقرآن، وحراسة دائمة للقلب ألا تسيطر عليه الأهواء، وكل التدابير الأخرى، على أهميتها، إنما يأتي وراء ذلك.

وأخيراً، مقياس القرب إلى النجاح، أمام الداعي إلى الله، هو قول الله عز وجل: "إنَّ الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما أنفسهم" فبقدر ما تشيع الاستقامة وينترف الصدق والأخلاق في حياة الأفراد، تنضح دعامة جديدة بتوافق الله في بناء المجتمع الإسلامي المشهود.

والله المستعان وعليه الاتكال.
الفهرس

مقدمة

الشروط الأولية لسلامة الدعوة

منطلقات الدعوة

منهجية الدعوة

مشكلات الدعوة

أخيراً هكذا فندع إلى الإسلام